مسرحية



العودة الدائمة إلى خانة الصفر

أحمد ابراهيم الفقيه

العودة الدائمة إلى خانة الصفر
تأملات في الواقع العربي

تقديم وإهداء

من موقعي ككاتب يشتغل بقضايا الإبداع، يكتب القصص والحكايات، جئت لمعالجة هذا الموضوع الذي يتصل اتصالا وثيقاً وحميماً بهموم كل مواطن عربي. لم استخدام أدوات الباحث الأكاديمي التي لا أملكها، ولا أساليب الدراسات المتخصصة التي لا أجيدها، ولم أكتب مقاربة علمية موضوعية تتناول السلبيات والإيجابيات وتتحدث بهدوء واتزان عن قضايا الواقع العربي من خلال المراجع والإحصائيات والبحوث الميدانية فليس فيما أكتبه هنا مراجع ولا إحصائيات ولا بحوث ميدانية ولن يجد فيه القارئ تناولاً أكاديمياً موضوعياً، هادئاً ومتزناً لقضايا وهموم الوطن العربي، ولكن سوف

يجد اغترافاً من جمر المشاعر والأحاسيس لمواطن خاض حقول النار واشتعلت في دمه الحرائق التي أضاءت أرض وسماء هذا الوطن. سيلتقي بحدس وعشق الدراويش، وسخط المواطن المحبط وسيرى شيئاً من نفسه من سخطه وغضبه وإحباطه وأفراحه معكوسة فيما أكتب أو هذا ما أرجوه وأتمناه.

وهنا أستميح القارئ عذراً في أن أهدي هذه الصفحات إلى كوكبه من رفاقي وأحبابي الذين رحلوا قبل الأوان بعد أن كتبوا وأبدعوا وحلموا بيوم تسطع فيه الشمس العربية وتملأ الأفق بسنائها الجميل، إلى علي الرقيعي، وخليفة التكبالي، ونجم الدين الكيب، وهدار الديب، ومصطفى نصر المسلاتي، وعبد ا القويري.

إليكم جميعاً يا أعز الأحباب ويا أجمل الرفاق، أقول : ما أشد وحشة هذا الفراغ الذي تركتموه في حياتنا، وما أمر غربتنا وأنتم ترحلون عنا، وستبقى

الأحرف والكلمات التي كتبتموها زادا على مواصلة الطريق حتى يأذن ا بالبقاء.

د. أحمد ابراهيم الفقيه

- - ١ - -

سأدعي أنني صرت فراشة!

أطارد اللهب وأعلن عشقي للنار

ولن تلاحقني بعد ذلك أجهزة الأمن السرية والعلنية بحجة أنني قد صرت مجوسيا! ودونما اجتراء على الصفوة الحاكمة ممن يملكون الحدائق والبساتين ويخبئون في جيوبهم النساء الجميلات سوف أغير ألوان أجنحتي للنساء يتجملن بها وأنشئ حلفا علنيا مع الزنابق والورود وبراعم أشجار اللوز والبرتقال دون أن يسجلني شرطي المباحث عميلا لقوى أجنبية.

لن أحتاج لموظف في البادية يمنحني شهادة ميلاد أو شهادة إثبات شخصية أدافع بها عن نفسي لأنني سأطير عبر حقول الشمس مالكا حريتي!

سأدعي أنني صرت غديراً يتجدد مع مولد السحاب. يأتي فيه وإليه يعود. يتصاعد أبخرة ويعود ماء، فأمنح نفسي شراباً للطير وأعلن ولائي لجذور الأشجار دون أن تطاردني بنادق القبيلة بحجة المروق على ولائها، سأزهو بصفائي، أتحول نسغا في الاغصان، أتحول رشحا يروي عطش الأرض أتدفق عبر خلاياها، أذيع بياناً للاعشاب والبذور، فتعلن ثورتها وتشق التراب وتملأ وجه الدنيا خضابا دون أن أساق إلى السجن بحجة تكوين خلايا سرية تعمل تحت الأرض.

سأدعي أنني صرت سحابة

أركب جياد الريح وأتجول حرة في حقول السماء دون أن أحتاج إلى رخصة للقيادة أو أحمل

هما لإشارات الضوء وعلامات السير على الطرقات، وسيبتهج أمير المؤمنين عندما يراني، سينظر نحوي قائلاً : " أمطري حيث تشائين فإن خراجك لي " عندها سوف أمطر فوق رأسه دون أن يستطيع لي دفعا، ولن يتمكن مني عسس الأمير وحراسه..

سأدعي أنني صرت غزالاً

وأعلن دون احتراز أو خوف من شرطة المحافظة على الآداب عشقي للفجر وللنجمة الهاربة، وأرقب دون إحساس بالإثم المشاهدة التي لن يصل إليها مقص الرقيب عندما تلتقي بنات الريح بكائنات الغابة، وعندما يقَبل الندى شجرة ورد لها مائة فم جميل، وعندما يضاجع البرق أنثى الكروم التي تتشهى الإخصاب، سأركض فوق بساط الضوء غير آبه بساعات منع التجول وأنجو بذلك من تهمة الامتناع عن تنفيذ أوامر وتعليمات السلطان.

سأدعى أنني صرت سنبلة

أتغذي برحيق الشمس، أتمتع بنشيد الريح، أعانق أمطار الليل، لن أسمع نشرات الأخبار. لن أقرأ صحف الحزب، لن أقف لأصفق لزعيم الأمة، تغفو حبات الحنطة تحت جناحي، تنضج، تحصد، تطحن، تخبز، وتصير طعاماً للناس، فأحس بأنني ذات نفع للدنيا وأنني لست مجرد رقم في قائمة الأرقام المشنوقة فوق البوابات السبع لمدينة مولانا.

سأدعي أنني صرت شجرة صفصاف

أغفو بين الظل وبين الضوء

بين الأرض وبين الماء

أغفو متى شئت وأصحو متى شئت دون التزام بساعات الحضور والانصراف، ودون أن يلحقني العقاب لإخلالي بمواعيد الدوام الرسمية.

أضرب بجذوري في الماء. تتغذى عروقي من كرم الجدول، فلا أحتاج إلى أن أمد يداً ذليلة إلى

خزانة بيت المال أو أنتظر مواعيد الغذاء والعشاء التي يحددها فرمان السلطان.

سأفتح قلبي بيتنا للعصافير والفراشات وسأستقبل السناجب والقنافذ وبنات آوى، وأصطفي من أشاء من الصحاب دون أن يأتي شرطي لمحاكمتي بتهمة أنني أختار أصدقائي من المشبوهين وأصحاب المبادئ الهدامة.

سأدعي أنني صرت قوس قزح

وسأظهر لأول مرة في سماء مدينتنا مرتدياً ألواني الحقيقية، لن أتنكر في لون السلطة، ولن أحتاج لأن أسمع المذياع كل يوم لأعرف ما هو اللون الذي يجب أن أطلي به وجهي ذلك النهار.

سأمزق بطاقة الحزب.

وأعلن انتمائي للأفق وزرقة السماء. وسأرنو مندهشاً لليل الجاثم فوق مدينتنا دون أن يحاسبني الدرك على اندهاشي.

كنت سأدعي هذا كله لولا الحجارة التي استعادت كرامتها على أيدي فتيان وفتيات القدس وغزة والجليل، ولذلك فقد قررت أن أهجر قاموس الشعراء وأتخلى عن الفراشات والغدير والنبيذ وأشجار الصفصاف وأقواس قزح، وادعي انني صرت حجارة.

سأحمل غضبي وعنفي وقهري وحقدي، وأتحول إلى حجر يدك السور ويفتح الباب الذي يفضي إلى الغد !

– – ٢ – –

جرت العادة على أن تقوم الصحف العالمية باختيار شخصية دولية تسميها شخصية العام. شخصية استقطبت أنظار العالم، وأسهمت في دفع عجلة التقدم إلى الأمام، وأثرت تأثيراً فاعلاً في أحداث العام المنصرم. ولا يبدو أن هذه الصحف قد

اهتدت إلى شخصية واحدة ينعقد حولها الاجماع كما حدث في أعوام سابقة، ولكنني لو فكرت في شخصية واحدة فرضت نفسها على الأحداث، وكانت محوراً لأحاديث وسائل الإعلام يمكن تسميتها شخصية عام ٨٩ لما وجدت شخصية أكثر فعالية وأعظم استحقاقاً لهذا اللقب من شخصية طفل الحجارة في الأرض المحتلة.

لقد كان هذا الطفل بلا منازع هو رجل العام الذي مضى. أعلم جيداً وأنا أقول هذا الكلام أن الانتفاضة من صنع آباء وأمهات بمثل ما هي من صنع أطفال صغار. رجال ونساء وشيوخ ثاروا على الظلم والاحتلال، وسقط منهم الشهداء الذين أطعموا دمهم لأرض وتراب الوطن المقدس، ولكن تضحيات هؤلاء الآباء والأمهات ونضالهم وبطولاتهم مستمرة معنا منذ أن بدأ الاحتلال. ولكن العامل الجديد الذي دخل على الأحداث فقلب الموازين وقدم صورة

استثنائية في تاريخ النضال الإنساني ملحمة جديدة مكتوبة بالدم والفداء ولغة الشهادة والاستبسال، فأبهر أبصار العالم وقدم دليلاً ساطعاً على أنه صاحب هذه الأرض وسيدها مهما اشتدت قوى العسف والظلال.

لقد عرفنا تلاميذ المدارس الذين يتظاهرون في مواجهة خراطيم المياه ودخان القنابل المسيلة للدموع، وندر بين أهل الأرض من لم يكن طرفاً في مثل هذه المظاهرات التي تقوم لأسباب سياسية وغير سياسية ولكن أن نرى أطفالا صغاراً يتركون كراريسهم ومراجيحهم وألعاب الصغار التي تليق بأعمارهم وينخرطون في مواجهة دامية مع جيش الاحتلال المسلح بأكثر أنواع العتاد الحربي فتكا ودماراً ومعززاً بأكثر النظريات العنصرية عداء للإنسان، يحملون حجارتهم يواجهون بها هذا الجيش بكل بطشه وجبروته وعنصريته وإجرامه فهذا هو الفصل الذي لم يكتبه في سجل النضال إلا الطفل الفلسطيني.

حاملاً أعوامه الخضراء يأتي حاملاً عشقه للحرية يجئ. بكل براءة الطفولة وجمالها، ليصنع للوطن تاريخاً جديداً يؤسس لكفاح الشعوب أبجدية جديدة لم يعرفها العالم من قبل.

يتساقط حوله الشهداء. تسيل أمام عينيه أنهار الدماء. فلا يتردد، ولا يتوقف يواصل مسيرته النضالية الأسطورية. رافعاً براءته راية حمراء في مواجهة أكثر أنواع الظلم شراسة ورعباً يتلقف بأصابعه الصغيرة حجرا يرمي به في وجه الغول الذي يقذف لهبا وناراً وحديداً مصهوراً.

هذا الطفل الفلسطيني المدهش، طفل الحجارة هذا. الطالع من عمق التاريخ والحضارة. من قهر السنين وليل الاحتلال. إنه هو ولا أحد غيره بطل هذه المرحلة. شخصية العام الذي انقضي والعالم الذي يأتي.

فياه أيها الطفل الفلسطيني الجميل، يا من صنعت مجد الحجارة ومجد التاريخ وأعدت إلى الوطن العربي وجهه النبيل الجليل. يا من ابتكرت لغة جديدة لم تعرفها المعاجم وأبدعت ملحمة جديدة في تاريخ الإبداع، لك النصر وأكاليل الغار، أنت الرجل وما عداك صغار.

ـ ـ ٣ ـ ـ

لم يعد غريباً أن نلتقي في الغرب بجمعيات ومؤسسات وشخصيات سياسية وفكرية تتخذ موقفاً مؤيداً من القضية الفلسطينية وتحارب معنا وسط مناخ تهيمن عليه أجهزة سياسية وإعلامية موالية للاحتكارات والسياسات الصهيونية.

وكثيراً ما نلتقي بين هؤلاء الناس بإنسان نذر حياته للدفاع عن القضية الفلسطينية وكرس جهده لخدمتها مقدما بكرم وسخاء ما يفرضه ذلك الموقف

من تضحيات ومتحملاً في سبيل ذلك الضرر والأذى، جاعلاً من هذه القضية قضية حياة أو موت.

نلتقى به فنحس بالخجل من أنفسنا، لأنه برغم انتمائه لبيئة وثقافة وهوية مغايرة وبرغم أنه جاء للقضية من خارجها، إلا أنه أكثر خدمة لها منا نحن أصحاب القضية، يخوض حربه ببسالة وإيمان وروح فدائية ويحقق نجاحاً في كسب أصدقاء للقضية بأكثر مما نستطيع نحن تحقيقه لأنه يعامل أهل هذا المجتمع بأسلوبهم ويخاطبهم بما يتفق مع عقولهم ونفسيتهم، ونتساءل كيف ولدت هذه النبتة الغريبة وسط بيئة معادية وجذور تربوية تختلف عن جذورنا وتربيتنا وكيف نما في صدره هذا الإيمان العميق بالقضية الذي يتناقض مع ما ألفه الناس في هذه البلاد من آراء وأفكار ومسلمات ونكتشف عندما نقترب من هذا الإنسان أنه بدأ كغيره من أبناء بيئته مستجيبا لكل الضغوط التي تجعله عاجزاً عن رؤية الحقيقة منساقاً

مع الأفكار التي يتداولها الناس عن اليهود المطاردين الملاحقين عبر كل مراحل التاريخ والذين يبحثون اليوم عن سقف يحميهم من الاضطهاد والعداء ضد السامية ثم أتاحت له الظروف أن يلتقي بصديق عربي ينقل له صورة مخالفة لما كان يقرأه ويسمعه في أجهزة الإعلام، ويفتح عينيه على بشاعة المؤامرة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني على أيدي هؤلاء اليهود، ولعله بدأ مستنكراً كلام هذا الصديق رافضاً أن يتنازل عن ولائه لأجهزة الإعلام التي كان يمنحها تفويضاً دائما بأن تفكر بالنيابة عنه وترسم له آراءه وأفكاره السياسية ولكنه تحت إلحاح هذا الصديق بدأ يحاول أن يهتدي إلى الحقيقة دون اعتماد كامل على الوسائط الإعلامية التي تتغذى على نشرات الناطق الرسمي للكيان الصهيوني، وتدريجيا بدأت تتمزق تلك الحجب الكثيفة السوداء التي أخفت عنه الحقيقة، صار يدرك أنه ضحية حملة كبير من التضليل

والتزوير والخداع، وأن هناك صورة أخرى للقضية لا تنقلها وسائل الإعلام ولا يتحدث بها الرأي العام ولاترد على ألسنة السياسيين الغربيين، بدأ يتعرف على بشاعة الظلم الذي تعرض له الإنسان الفلسطيني والمجازر التي ارتكبت في حقه والمؤامرة الوحشية التي أخرجته من أرضه ودياره وبساتينه، وزرعت بدلاً منه شعباً هجينا جاء من مختلف أصقاع الأرض، وفرض وجوده بقوة النار والحديد والتآمر لا بقوة العدل والمنطق والشرائع الدولية، وأدرك أن مسئوليته تجاه هذا الظلم هي مسئولية كل إنسان شريف يحب الخير والعدل فبدأ منذ ذلك الوقت مسيرته لإظهار الحقيقة وتمزيق الحجب التي تخفيها عن أعين الناس في بلاده.

اننا نستهين أحيانا بالعلاقة الشخصية وقدرتها على تغيير الأفكار والقناعات، ولكن الشواهد تثبت أن هذه العلاقات أكثر تأثيراً وفعالية من كل الوسائل

الأخرى. حقاً إننا لا نستطيع بالعلاقات الشخصية وحدها أن نغير اتجاهات الرأى العام أو نصوغ قناعات الشعوب كما تفعل ذلك وسائل الاتصال بالجماهير من كتب وصحف وإذاعات وأشرطة، ولكن المعركة التي نخوضها بحاجة إلى استنفار كل ما لدينا من موارد وجهود وإمكانيات، بدءاً من الصداقة الشخصية إلى ممارسة ما نستطيعه من نفوذ على المؤسسات الصحفية والسياسية، وإنصافا لأنفسنا، وإظهاراً للحقيقة وخدمة لقضايا العدل والحرية والسلام.

لست معنيا بأمانة ومصداقية السيد " مايلز كوبلاند " فيما يرويه من أسرار عن الأحداث التي عاصرها في منطقة الشرق الأوسط. فهي أحداث ما زال عدد من شهودها وصانعيها يعيش معنا ومن واجب هؤلاء الناس تصحيح ما ورد في حديث الجاسوس الأمريكي من أخطاء ومغالطات.

ولكن ما أثار انتباهي هو اللهجة التي تحدث بها السيد كوبلاند عن سياسة بلاده في ترتيب المنطقة بما يتفق ورؤيتها للعالم والحياة، ودوره ورفاقه الجواسيس الأمريكيين في تنفيذ هذه السياسة عن طريق استقطاب العملاء وطبخ المؤامرات وصناعة الانقلابات العسكرية فهو يتحدث عن ذلك كله باستخفاف واستهتار من يتحدث عن إحدى حفلات الشاي وليس عن جرائم ترتكب في حق أمم وشعوب وبشر وأوطان والعبث بمقدراتها ومصائرها ومستقبل

حياتها. وكان مسألة أن تتدخل وكالة التجسس الأمريكية في الإطاحة بأنظمة وطنية ودفع العملاء لنسج المؤامرات الانقلابية وعرقلة الدورة الطبيعية لمسيرة النضج والنمو، والارتداد بالتاريخ إلى عهود الفوضى والهمجية كأن ذلك كله مسألة عادية وعمل من أعمال البر والتقوى تقوم به أمريكا تعزيزاً وتحصينا لعالم الحرية والديمقراطية وكأنها ملكت تفويضاً بأن تتصرف في رقاب شعوبنا كما تحب وتشتهي.

ومهما خالط إفادة السيد كوبلان من مبالغات أو مغالطات فقد أكد بهذه الشهادة ما كان متداولاً بين الناس في بلادنا بان أمريكا كانت وراء ظاهرة الانقلابات العسكرية التي عرفتها منطقة المشرق العربي في تلك المرحلة التاريخية كما عرفتها المناطق المجاورة لها فلم تسلم من هذه الانقلابات بلدان ذات علاقة خاصة بأمريكا مثل تركيا ولم تسلم

منها بلدان ذات تراث ديمقراطي مثل اليونان وكانت أصابع أمريكا دائماً هي التي تمسك بخيوط الدمي التي ترتدي فوق صدورها الأوسمة والميداليات وتلعب فوق مسرح العرائس الدولي وفي حين كانت دول الاستعمار التقليدي مثل فرنسا وبريطانيا تستخدم في لعبتها الزعامات التقليدية وتعتمد على إثارة الفتن والنزاعات بين الفرق السياسية وتسعي دائماً لإنشاء التيارات الموالية لها فإن أمريكا لم تكن تملك وقتا أو صبراً على مثل هذه الممارسات واستخدام الأساليب الاستعمارية العتيقة وجاءت أمريكا إلى المنطقة بعقلية الخدمات السريعة والأطعمة المعلبة والفنادق العائمة ودكاكين " الفليبرز " وغزاة الفضاء لكي تباشر تطبيق مخططاتها وبسط نفوذها وسيطرتها وباسلوب من يدير مطعماً لتقديم المأكولات السريعة صارت أمريكا تدير مقدرات الشعوب التي أوقعها سوء طالعها في قبضتها.

ولم تكن تستطيع تحقيق هذه النتائج السريعة إلا عن طريق الانقلابات العسكرية لأن هذه العقلية التي تتغذى على أفلام " الوسترن " ومغامرات " الكاوبوي " لا تتصور أن هناك قوة قادرة على التغيير مثل الرجل الذي يرتدي مئزر البارود ويحمل في يده مسدسا وعلى كتفه نجمة.

وهكذا أدخل السيدة كوبلاند ورفاقه من أعضاء الاستخبارات الأمريكية منطقتنا العربية في دائرة الخراب والتدمير التي جاءت مع هذه الانقلابات العسكرية التي ترفع شعارات التحرر والتقدم والوطنية وهي ضالعة في العمالة والخيانة والتبعية لأمريكا.

لقد تكلم السيد كوبلاند عن انقلابي حسني الزعيم وأديب الشيشكلي وأشار إلى أن له ولزملائه دوراً فيهما ولكنه لم يقل لنا إذا كان هذا العنصر الجديد الذي أدخلوه إلى ميادين العمل السياسي الدولي

قد حقق لهم أهدافهم فنحن نعرف أن الباب الذي فتحه حسني الزعيم ومن بعده أديب الشيشكلي لم يجاب إلى شرقنا العربي إلا الرعب والخراب ومصادرة الحريات. العامة والخاصة وتعطيل مسيرة التنمية والبناء فهل هذا هو ما كانت تريده أمريكا؟ وهل إيذاء وقهر هؤلاء المواطنين يخدم حقاً سياستها؟ وهل تعجز أمريكا عن تحقيق مصالحها بأساليب أكثر رفقاً وأقل وحشية من هذه الأساليب؟ وأخيراً فنحن لا نسأل ا رد القضاء ولكن نسأله اللطف فيه.

السياسة ليست دائما اختياراً بين الخير والشر أو بين الجيد والرديء أو بين الأبيض والأسود. وهي قد تكون كذلك في مناسبات كثيرة. وعندها فإن الاختيار يكون قد تحدد سلفاً، فلا أحد يختار الشر على الخير، أو السيئ على الجيد أو يترك الضوء ويختار الظلام، اللهم إلا إذا كان سياسيا جاهلاً بائسا أعمى البصيرة لا يملك إدراكاً يري به الخير ويعرف به الفرق بين الطيب والخبيث، ومعنى ذلك أنه رجل لا أهلية له لكي يقود الناس ويسوسهم. أو إذا كان طاغية تمكن الشر من نفسه فاستولى على مقدرات الناس وصار يسخرهم لخدمة أهوائه وأغراضه بمثل ما فعله الطغاة في التاريخ قديما وحديثا ومنذ عصر الفراعنة إلى عصر الوندال والتتار وصولاً إلى عصر الفاشية والنازية. ولكن المشكلة أن السياسة كثيراً ما تكون اختياراً بين شيء سيئ وشئ أكثر

سوءاً، بين شر وشر آخر أكثر خطراً واستفحالاً، عندها يكون الخيار صعباً ويكون القرار بحاجة إلى أكثر أهل البلاد حكمة للمفاضلة بين هذين الشرين.

ومع تعقد المشاكل الدولية وتداخلها، وظروف الحياة العصرية وضغوطها، صارت مثل هذه الحالة تواجه السياسي دائماً، وصارت مهمته هي أكثر المهمات دقة وخطورة، فمن ذا الذي يستطيع أن يقف كل يوم ليقول لنفسه أي شر أختار؟ ثم من أدراه أن هذا الشر الذي أبقاه هو أفضل من ذلك الشر الذي أراد القضاء عليه. لن يكون هو الشر الأكبر الذي يهدد مصالح شعبه ونظام حكمه واستقرار بلاده.

والحاكم الآخر الذي أراد مزيداً من القروض من المصرف الدولي فرفع أسعار الرغيف في هذه المدينة أو تلك ليدفع شقاء أكبر بشقاء أقل. هل تراه أخطأ أم أصاب. من هنا، من هذه الخطورة والمسئولية والتبعات التي تنجم عن اتخاذ القرار

جاءت ضرورة اتساع رقعة الذين يشاركون في صنع القرار السياسي من مجالس ومؤسسات دستورية.

إن الحرب على سبيل المثال هي أكثر الشرور التي ابتلي بها الإنسان فظاعة. فما الحرب إلا موت وخراب ودمار ورعب وأرامل وأيتام ومشوهون، ولكن سياسيين وزعماء وقادة وطنيين وقفوا في مواجهة هذا الخيار الصعب الحرب من أجل دفع بلاء أكثر هولا ورعباً شر كبير يواجهون به شرا أكبر. هذا هو المبرر الوحيد لأي حرب في الدنيا وما الحرب إلا مثال على ما يمكن أن يصل إليه هذا الخيار الصعب بين شر وشر.

هناك ما يمكن أن نسميه القراءة التامرية للأشياء، وهي قراءة يتبناها نوع من البشر يرون شبحا خلف كل بناء، ووحشاً يختفي خلف كل شجرة تنتصب على جانب الطريق، ونية شريرة مبيتة وراء كل سلوك أو تصرف لا يعجبهم.

يبدءون دائما بالشك والريبة قبل التصديق والقبول، تقابلهم في الطريق فلا تدري ماذا تفعل معهم. إذا أقبلت على تحيتهم بحرارة وحماس فإن لديهم تفسيراً لهذا الحماس الذي لا بد أن وراءه غرضاً أو هدفاً ليس خالياً من الشبهات. تقرأ ذلك في ملامحهم ونظراتهم، وأحيانا تسمعه صراحة منهم وإذا أهملت تحيتهم فأنت لا شك عضو في عصابة تسعي للنيل منهم ومناصبتهم العداء وإذا تغاضيت عن هذه النظرات والهمسات المريبة بأمل أن تزيل هذا الوهم من أذهانهم وجلست معهم وفتحت موضوعاً

محايداً لا يوقظ الشكوك ولا يثير الشبهات. وتكلمت عن كتاب صدر حديثاً فسوف تسمع تشكيكاً في موضوع الكتاب والجهات التي تستفيد منه، والتي قامت بتمويله ويعقدون أمامك محاكمة للكتاب وصاحبه قبل قراءة هذا الكتاب. فلا شيء في عرفهم مبرأ من الشبهات ويفتح الواحد منهم صحيفة من الصحف اليومية ويقرأ العنوان الرئيسي بصوت عال. ويعقب على ذلك قائلاً وهو يلتفت إليك : أرأيت؟ يقولها وقد جحظت عيناه فزعاً. وكأن الحروف تحولت إلى ثعابين تتسلق جسمه، يقولها قبل أن يقرأ الموضوع أو يعرف تفاصيله وتنظر إليه مندهشاً لاندهاشه، تريد أن تعرف سر استغرابه، فيهزأ من غفلتك لأنك لم تنتبه إلى حجم المؤامرة وراء هذا العنوان. ولم تدرك الأبعاد الخطيرة التي يحملها والجهات الخفية المجهولة التي يخدمها وتحاول أن تجاريه في أفكاره وتبحث في ذهنك عن المؤامرة

التي يشير إليها فلا تجد شيئاً في العنوان يوحي بذلك إنه عنوان لخبر يتناول أهم الأحداث التي عرفها العالم ذلك اليوم نشرته الصحف الأخرى، ونقلته الإذاعات التي استمعت إليه فأين يا ترى تكمن المؤامرة؟ تنقل للرجل حيرتك واندهاشك، فيضحك من عقلك الساذج الذي لا يقرأ ما خلف السطور ولا يعرف من الأمور إلا ظاهرها الذي لا ينبئ بجوهرها لأن السر ليس في هذا الخبر أو هذا العنوان وإنما في خبر آخر وعنوان آخر أهملته الصحيفة عمدا وأبرزت هذا العنوان من أجل طمس وإخفاء الموضوع الآخر الذي لا يخدم أغراضها وأهدافها إنه جزء من مؤامرة الصمت التي تحاط بها القضايا الكبيرة رغبة في تهميشها وإزاحتها من مركز الضوء والاهتمام وتغليب القضايا التافهة على القضايا الخطيرة تغييبا لعقل القارئ العربي الذي لا يدرك هذه المخططات واستهتاراً بفهمه وإدراكه، ولكن

الصحيفة تنسي أن هناك قارئاً لا تنطلي عليه أساليب الخداع فهو قادر على كشفها وفضح المخططات التي تخدمها.

وهو لا يري المؤامرة في خبر دون بقية الأخبار أو صحيفة دون بقية الصحف أو كتاب دون بقية الكتب. فكل الاخبار وكل الكتب وكل الصحف وكل الناس من أمثالك ممن لا يتفقون مع رأيه أهدافاً يطلق عليها النار.

وإذا كانت مثل هذه الحالة تجسد حالة مرضية ونوعاً من أنواع الفوبيا والاحساس بالاضطهاد لدي بعض الناس فهي غالباً ما تبدأ لدى أناس آخرين كرغبة لإظهار الذكاء والشطارة والقدرة على معرفة الأشياء التي تحت في خلف الكواليس يعجبهم جو الإثارة والذهول الذي ينشأ من حولهم نتيجة هذه القراءة التآمرية للأخبار والأحداث والوجوه والأفكار فيبالغون فيها حتى تصبح منهجا يرون به الأشياء.

وجزءا من شخصيتهم وتكوينهم.

إننا نتفق معهم بأن العالم لا يتعامل بالبراءة وحدها، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا مكان فيه إلا للغش والتدليس والتآمر والمخططات الجهنمية التي تسعى للفتك بنا ولا أدري كيف تستقيم الحياة لمثل هؤلاء الناس الذين لا يجدون في الدنيا شيئاً لا يستحق الإدانة والهجوم لأنه لا خلاص عند ئذ إلا بالانتحار.

يمكن اعتبار هذا التناقض الذي نراه يحدث بين الشعارات وتطبيقها واحداً من أخطر أمراض التخلف في وطننا العربي.. اتسعت المسافة بين الكلام النظري والواقع العملي حتى بات من الصعب وجود علاقة بين الاثنين وبات من السهل أن نصدق ذلك الحديث الساخر الذي يبالغ في تصوير هذا التناقض قائلاً بأنك لا تستطيع فهم معاني الشعارات التي ترد على ألسنة المذيعين في بعض الإذاعات العربية إلا إذا عكست معناها ووضعت لكل كلمة نقيضها، فكلما سمعت كلمة الحرية ضع بدلاً منها القمع، وكلما سمعت كلمة ديمقراطية ضع بدلاً منها الاستبداد وكلما سمعت مفردات الرخاء والسعادة والرفاهية أبدلها بكلمات البؤس والشقاء والمعاناة وبهذه الطريقة يمكنك ـ كما يقول أصحاب هذه الحديث ـ أن تصل إلى فهم حقيقي لما يجري في بعض بلاد العالم العربي.

وبرغم ما في هذا الكلام من سخرية مريرة وروح تهكمية إلا أنه يعطي صورة عن الثقة المفقودة بين المواطنين وبين الناطقين الرسميين باسم الحكومة والأنظمة.

لقد أثبتت التجارب بأن الشعار مهما كان رائعاً وجذاباً وينشد الخير والسعادة للمواطنين فإنه يمكن أن يطبق تطبيقاً مشوهاً يجعله بشعاً كريهاً لا يحمل للمواطن إلا الشقاء والعذاب. كما أنني مؤمن بأنه مهما كان الشعار بائساً وكريهاً ومهما كانت التعليمات التي يصدرها الحاكم قاسية وظالمة فإنه يمكن أن يتحول عند التطبيق إلى شيء يبطل ظلمها وبشاعتها.

وتروي إحدى الحكايات الشعبية أن أحد الحكام استاء كثيراً من أن قامته تتساوى في الطول مع غيره من أبناء الشعب وهو الذي يجب أن يتميز دائماً عن الآخرين فأصدر أمراً إلى قائد شرطته بأن يتولى إنقاص خمس سنتيمترات من كل مواطن ليصبح

الجميع أقصر قامة منه. وكان قائد الشرطة مخلصاً وأميناً في تطبيق التعليمات فأعطى كل شرطي ميزاناً وأمره بأن يقيس المسافة المطلوبة وينقصها من رأس كل مواطن وهكذا أعمل العساكر سيوفهم قصاً وتقطيعاً لرءوس الناس حتى وصلت الأنباء إلى الحاكم بأنه بعد أيام قليلة سوف يفقد كل أفراد شعبه وسيبقى حاكما بلا شعب وهو يعرف أن ذلك شيء لا يطاق، فالحاكم الذي يفقد شعبه مثل الطفل الذي يفقد لعبته ويبقي عرضة للضجر والقلق، ومن أجل هذا فقد جلس حزينا مهموماً لا يعرف حلاً للمشكلة فهو يأبى أن يتراجع عن أوامره التي أصدرها وفي ذات الوقت فهو لا يريد أن يبقى وحيداً مثل الراعي الذي فقد أغنامه، وجاء الفرج على يد أحد المستشارين الذي أحضر رجلاً حكيماً يستطيع تنفيذ تعليمات الحاكم دون إبادة كل الشعب واستلم الرجل الحكيم مسئوليته واستخدم أسلوبا جديداً لتطبيق التعليمات بأن

صار ينزع للناس أحذيتهم ويحلق لهم شعورهم ويحني لهم قاماتهم حتى جعلهم جميعاً أقصر قامة بمساحة خمس سنتيمترات كما أراد السيد الحاكم دون إراقة دم مواطن واحد.

يقول المثل الذي نردده في كل أقطارنا العربية بمختلف اللهجات والصياغات أن اليد الواحدة لا تصفق.

وسأصرف النظر عما يرمي إليه هذا المثل من حث على التآزر والتعاون وسأكتفي بالسؤال عن معنى اختيار التصفيق كرمز ودلالة لهذا التعاون إذ لماذا اختار هذا المثل عملاً لليد عندما تلتقي باليد الأخرى لا معنى له ولا فائدة ترجى منه هو التصفيق؟ وكيف أضحي التصفيق مهما إلى حد أن يراه صاحب المثل نتيجة عظيمة لما يتحقق من تعاون وتكاتف بين يدين اثنتين ويأتي ليحذرنا من النتائج الوخيمة التي تحيق بنا عندما لا نجد يداً أخرى نستطيع أن نصفق بها.

وأهمية هذا المثل تأتي من أن هناك إجماعا عربياً تحقق حوله ندر أن يتحقق لأمثال أخرى، وهو

مازال جاريا به القول على لسان كل عربي ولا شك أن الذاكرة التي نحتت هذا القول واحتفظت به لم تفعل ذلك عبثاً فهي ذاكرة تعي خطورة التصفيق وأهميته في حياة المواطن العربي ولعل صاحب هذا القول الذي أطلقه لأول مرة منذ عصور قديمة قد عاش تجربة مريرة عندما مر بجواره موكب السلطان وكانت إحدى يديه مشغولة أو جريحة فلم يستطع أن يصفق للموكب ونال نتيجة ذلك من الأذى والعقاب ما جعله يرسل تحذيره إلى مختلف الأجيال العربية التي تأتي بعده.

وإذا كانت الأمثال تتشابه في ثقافات الشعوب على اختلاف لغاتها وأجناسها ودياناتها فإنني لا أعتقد أن هناك شعباً في الدنيا يحتفل بالتصفيق ويمنحه هذا التكريم ويضرب من أجله الأمثال كما يفعل الشعب العربي، ولعل هذا يفسر كيف أصبح التصفيق هو المشاركة الوحيدة التي يقوم بها المواطن من أجل

تقرير قضاياه المصيرية وما أن يظهر احد الولاة ويجمع الناس في حظيرة واحدة ويبلغهم فرمانا تركيا بحظر التجول في الشوارع إلا أثناء الاحتفال بعيد ميلاده، حتى يبحث الناس عن أيديهم ويضربون الواحدة بالأخرى مصفقين له ويطيلون التصفيق إلى أن يأذن لهم بالانصراف وسوف يصفقون له مرة أخرى إذا أصدر فرمانا جديداً يبيح لهم التجول عند تنصيبه واليا، فهم يصفقون للخير والشر وللأفراح والأتراح.

وحققوا بذلك رقماً قياسيا عالميا في التصفيق ولا شك أن محنة المواطن الذي يترك الوطن ليعيش في بلاد المهجر سوف تكون محنة كبيرة وهي محنة تصيب يديه أكثر مما تصيب بقية أطراف جسمه فهاتان اليدان اللتان تعودتا على التصفيق إلى حد الإدمان وتربتا منذ الطفولة على أن اهم رسالة لهما في الحياة هي التصفيق سوف تعانيان حرمانا مضنيا

وقاسيا عندما لا تجدان مواكب رسمية أو ولاة عثمانيين أو فرمانات هابطة من الباب العالي تطلب التصفيق وتجعله شرطاً من شروط المواطنة.

وطالما أن اليد الواحدة لا تصفق فإن دعاء كل مواطن عربي هو أن يحفظ ا له يديه الاثنتين سليمتين لكي لا يخالف حكمة أجداده الذين أوصوه بالتصفيق من المهد إلى اللحد ومن المحيط إلى الخليج.

وإلي أن يتحقق يوم يصبح فيه كل أبناء الشعب شركاء في السلطة وشركاء في صنع القرار فسيظل التصفيق يحظى بالاكبار والتبجيل، وموضوعاً للأشعار والأمثال، ووصية الكبار إلى أبنائهم الصغار.

كيف يمكن أن ننفذ، أثناء الكتابة، من سلطة الآني والظرفي، والمؤقت لكي نستطيع أن نتعامل مع العناصر التي تتفاعل على المستوى العميق للواقع باعتبارها أكثر ثباتاً وتأثيراً في حياتنا، ماضيا وحاضراً ومستقبلاً كيف نستطيع أن نفعل ذلك والحدث الآني الذي يواجهنا حدث صاخب يهز الأرض ويسد المنافذ وينذر بقدوم الكارثة.

ليس معنى ذلك بطبيعة الحال أننا نريد أن نفصل فصلاً تعسفياً بين هذه الأحداث التي تدق طبولها فوق السطح، وبين التيارات التي تتصارع في الأعماق أو نريد أن ننسى طبيعة العلاقة والتأثير بين الاثنين. ولكن كيف نحمي أنفسنا من هيمنة الحدث الطارئ والعارض والانشغال برؤية السطح، دون النظر إلى الأعمق والأبعد غورا والأكثر تجذراً وتأثيراً وفعالية في حياتنا؟ مثل هذا السؤال يواجهنا

دائماً في اللحظات التي تتصاعد فيها وتيرة الأحداث وتغمر السطح الزوابع والاعاصير فلا نري إلا الأمواج المتلاطمة السوداء.

لا شك أن الرابطة القومية تمر اليوم بامتحان عسير، وتواجه أخطر الأزمات التي مرت بها، ولا شك أن هذه الأزمة لم تأت إلا نتيجة أخطاء تراكمت ولا بد من أن نحاول فهمها واستيعابها وإذا كانت الحكمة العربية المأثورة تقول بأن من يزرع الريح يحصد العواصف فمنذ متى ونحن نزرع هذه الرياح التي نحصد اليوم عواصفها؟ وكيف نستطيع ونحن نقف في عين العاصفة أن نتأمل ما حدث ونحاول أن نتبين الطريق ونستشرف طريقنا للخلاص؟ أن هناك شيئاً أهملناه وأغمضنا عنه أعيننا فلم نستطع أن نراه حتى جاء يفاجئنا الآن بنتائجه الخطيرة.

فما هو هذا الخلل الذي أغمضنا عنه عيننا؟ إن الاجابة على مثل هذا السؤال تحتاج إلى أن نعلن حالة

استنفار وحشد لكل مواردنا الفكرية والعقلية لكي نستطيع أن نهتدي إلى الإجابة الصحيحة، التي يمكن أن تضع أقدامنا على الطريق الصحيح باتجاه الهدف الصحيح. إن هذا الذي يحدث على سطح الخريطة العربية، وفوق الأرض العربية وينبئ بمزيد من التمزق وتفجير الحروب والصراعات، بعد أن شهدنا فترة قصيرة من التفاهم والتضامن والوفاق العربي، يؤكد من جديد لعبة الفرص الضائعة، التي عشنا دائما نلعبها ونرمي بكل مواردنا ضحية لها، ما زالت لعبة رائجة في تفكيرنا السياسي. وأن أسلوب الارتداد إلى مرحلة الصفر، بعد أن وضعنا أرقاما في سجل الرابطة القومية، ما زال برغم كل النكسات والنكبات، أسلوباً لم ينته من حياتنا.

وإن هذه الفرص التي تظهر ثم تضيع من بين أيدينا ومرحلة الصفر التي ما أن نبتعد عنها قليلاً حتى نعود راكضين إليها، إنما تحدث نتيجة خلل في

تفكيرنا وأسلوب تعاملنا مع أنفسنا، لم نتخلص منه بعد، إننا نخطئ دائما في وضع وترتيب أولوياتنا، وننسى التناقض الرئيسي مع أعدائنا وننشغل بتناقضات ثانوية نضعها فيما بيننا، ونترك دائماً الهدف الكبير الذي يجمعنا ويوحد مسيرتنا ونمضي في طريق منحرف وراء أهداف سرابية تقودنا إلى الضياع والتهلكة.

وأثناء ذلك تتفكك وشائج الدين والعروبة التي تجمعنا، ويصبح الأمن القومي العربي مجرد خيمة تعبث بها الريح وتتناثر في الهواء جهود تنويرية وتحديثية تسعى إلى إخراجنا من مراحل التخلف إلى مرحلة التطور ومن الانغماس في الماضي إلى بناء الوعي الحضاري الذي يؤكد انتماءنا للعصر ويؤهلنا لخوض معارك الغد.

ونجد أنفسنا مرة أخرى نعود إلى مرحلة الصفر العربي الشهير، نمضي وسط المتاهة تضربنا

العواصف وتسوخ أقدامنا في الرمال ونحن نتساءل بصوت يمتلئ حرقة ولوعة، أين الطريق؟.

-- ١٠ --

قضية المرأة من القضايا التي تغري أصحاب الأقلام بالكتابة عنها، فهي قضية تتصل بكل قضايا التخلف الأخرى بما في ذلك قضايا الحرية وقضايا التعليم وقضايا التنمية وقضايا المساواة والعدالة الاجتماعية، وغالباً ما يركز هؤلاء الكتاب على جانب مهم من جوانب القضية هو ضرورة مشاركة المرأة في الحياة العامة ودخولها كقوة إنتاجية من قوى العمل والإنتاج في المجتمع.

وإذا كنت قد شاركت ببعض المقالات التي تتناول هذه القضية وكتبت كتاباً حولها، فلم يكن ذلك لأنني أعتني بالإنتاج وأسعى إلى زيادته أو أخشى على مشاريع التنمية من الفشل إذا لم تدخل امرأة

معركة الحياة، وإنما كتبت ما كتبته تحت دوافع أخرى لا علاقة لها بهذه الأسباب التي يستخدمها كُتاب يضعون أعينهم على التنمية والإنتاج لأنني كنت أستطيع أن أجد في أريافنا وقرانا العربية امرأة تنتج أضعاف ما تنتجه امرأة من نساء العالم المتحرر، ولكن تحت شروط أشبه بالشروط التي تعمل تحتها بهائم المزرعة، لم أكن أستطيع أن أنكر عليهم غيرتهم على التحول الاجتماعي أو حقهم في أن يروا القوى العاطلة عن العمل تتحول إلى قوى منتجة تسهم في بناء وتطوير المجتمع ولكنني كنت أنكر عليهم أن تكون قضية الإنتاج سببا وحيداً للمطالبة بانعتاق المرأة وتحريرها من مفاهيم تنتمي إلى عصر ما قبل الرسالة المحمدية الكريمة. كنت فيما كتبته مدفوعاً بقوة أخرى أستمدها من حالة النساء في قريتنا، فقد كنت أرى المرأة في تلك البيئة تعيش طوال عمرها داخل جدران بيتها، وغالبا ما

يكون هذا البيت خرابة صغيرة مبنية بالجبس والطين خالية حتى من النوافذ التي تطل على الشارع تقضي عمرها كاملاً هناك وكأنها دودة أو خنفسة وليست إنسانا كرمه ا   بأن جعله خليفته في الأرض حتى إذا خرجت فهي لا تخرج إلا إلى بيت يوازي بيتها ضيقاً وظلاماً، وكنت وأنا أكتب هذه المقالات أتصور لو أنني شخصيا خُلقت امرأة مثل هذه الأم أو هذه الاخت أو هذه العمة أو هذه الخالة وأتصور مدى الرعب الذي سوف يملأ حياتي من عمر أقضيه بين الجدران، وعندما نرى هذه المرأة راضية بمصيرها قانعة بحياتها، أرغمتها قرون طويلة من العسف والقهر والتخاف على أن تتكيف مع هذا الشكل الممسوخ للحياة فليس معنى ذلك أنها كائن خلق لهذا المصير. ولكن معناه أن التشويه الذي أحاط بها قد أصاب روحها ووجدانها وانتقل السجن من خارجها إلى داخل قلبها وصارت مهمة الطلائع المستنيرة من

رجال ونساء المجتمع تهديم هذا السجن الداخلي قبل السجن الخارجي وتوعية المرأة بحقها في حياة حرة كريمة تليق بالكائن البشري.

وبسبب ذلك كله لم تكن تلك الكتابات دعوة للعمل وزيادة الإنتاج بقدر ما كانت دعوة لأن يسترد الإنسان إنسانيته ورفضاً لتعاليم شهريار ألف ليلة وليلة الذي ذهب بلياليه وأساطيره وترك وراءه عقلية تمنع المرأة من أن تغادر البيت بعكس ما تأمر به الشريعة الإسلامية السمحاء التي جاءت تمنع وأد البنات وتحقق كرامة الإنسان.

لقد لحق التطور مختلف جوانب الحياة في عالمنا العربي. واتسعت رقعة المتعلمين والمتعلمات وتغيرت الاوضاع والشروط التي عاشت المرأة في ظلها أزمنة طويلة، ولكن جيوب التخلف لم تنته من كل مناطق الوطن العربي فما زالت هناك أرياف وقرى بعيدة عن هذه النهضة وما زالت هناك أفكار

تنظر إلى المرأة نظرة تحقير وازدراء، ولعل الأقلام النسائية الكثيرة التي اقتحمت هذه الميادين ستكون أكثر قدرة على مقاربة هذه القضية ومخاطبة عقل المرأة من أقلام الكتاب الرجال الذين استعاروا حناجر نسائية وظلوا لسنوات طويلة يخاطبون المرأة من خلف الأبواب والشبابيك المغلقة.

- - ١١ - -

صارت عبارة " حقوق الإنسان " عبارة كثيرة التداول هذه الأيام في الوطن العربي، وإذا كنا في أزمنة مضت نسمعها من الحقوقيين والكتاب والمثقفين، يقولونها على استحياء أحيانا، أو يقولونها ويتحملون تبعات الصراع الذي ينشأ بينهم وبين بعض الحاكمين بسبب قولها فإننا هذه الأيام صرنا نسمعها من الناطقين الرسميين بأسماء الأنظمة الحاكمة ذاتها.

بل صرنا نرى مشاريع تكتب وتعرض على الهيئات التشريعية للتصديق عليها وإضافتها إلى المواثيق الرسمية والمرجعية التي تعتمدها الأنظمة منهجا وأسلوبا في الحكم والسياسة.

ولا أريد أن أكون مثل عجائز المأتم. لا أرى إلا الكارثة ولا أنظر إلا إلى الجانب المظلم من الصورة. ولذلك أقول بأن هذا الحديث عن حقوق الإنسان حتى وإن لم يتحول إلى واقع عملي نعيشه ونحس به ونجني ثماره كل يوم فإن دفع الجهود لكي تمضي بهذا الاتجاه يصبح مهمة وطنية لكل من يعنيه أمر الحريات العامة والحريات الخاصة وحقوق الإنسان فلا شيء أصاب حياتنا بهذا البلاء الذي اسمه التخلف والذي صار عنوانا لكل ما نعانيه من قمع وقهر واستبداد غير غياب هذه الحقوق والحريات، وإذا كان غيابها قد جاء محصلة طبيعية لعصور طويلة من الهيمنة الأجنبية، فإن هذه الحقوق لها

جذورها القوية في تاريخنا وثقافتنا، ولقد شهدت بداية الدول العربية والإسلامية أزهى مرحلة في تاريخ البشرية اعتنت واحتفت بهذه الحريات والحقوق عندما كان المواطن البسيط يقف في وجه الخليفة ويقول له إذا رأينا فيك اعوجاجا قومناه بسيوفنا ويتعرض الخليفة إلى مساءلة يومية تصل إلى حد سؤاله عن ثوبه الذي يرتديه من أين جاء به؟ ومستجيبا لقوانين الحق والعدل التي أتاحها الإسلام لذلك المواطن يقول الخليفة بسماحة صدر إنه استعار قطعة من ثوب ابنه يضيفها إلى ثوبه.

ويطلق ذات الخليفة الذي استعار قطعة من ثوب ابنه يرتق بها ثوبه نداءه الذي وضع قاعدة لحرية الإنسان وحقوقه عندما قال : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ".

ومضي زمان وجاء زمان وتواترت عصور الارتداد والانتكاس والظلام والغزو والهيمنة الأجنبية

لتضيع الحقوق وتتلاشى الحريات ويصبح الأحرار عبيداً وتنطفئ مشاعل الحضارة التي أضاءت الدنيا لأن العقل الذي أضاءها صار الآن سجين القمع والخوف والتسلط والاستبداد وبرغم انتهاء المرحلة الكولونيالية ورحيل المستعمرين تحت ضربات المجاهدين والمناضلين من أبناء أمتنا، وانتشار أفكار العدل والحرية والمساواة، ظل الأفق مقفلاً في وجه العقل العربي لكي يستعيد رحلة الإبداع والتألق والمغامرة الفكرية وارتياد حقوق العلم والمعرفة تجديداً وتطويراً وإضافة سجين هذا الميراث الثقيل من التخلف الذي تركته عهود الاستبداد والاستعمار ولكن إلى متى نبقى سجناء هذه التركة غير قادرين على أن نتلمس طريقنا نحو النور والخروج من هذا النفق الضيق المظلم الذي أبقانا غرباء عن حضارة العصر.

إن الاهتداء إلى عقد اجتماعي جديد نتجاوز به ترسبات الماضي وسلبياته ونبني به علاقة جديدة بين المواطن ومؤسسات الحكم يضمن الحقوق ويتيح الحريات العامة والخاصة ويحترم حرية الرأي والتعبير والتفكير ويؤكد تواصلنا مع حضارة العصر صار سبيلنا الوحيد للخروج من هذا المأزق الذي يخنق فرص التقدم ويعطل المكانيات النمو.

ولذا فالحديث هذه الأيام عن حقوق الإنسان لا ينطلق من فراغ وإنما يأتي استجابة لإلحاح شعبي ظل على وطول المدى يدق الأبواب ويبحث عن إمكانيات الخلاص وتتويجاً لمسيرة نضالية طويلة كان دأبها التأكيد على هذه الحقوق المدنية الغائبة كما يأتي استجابة لمرحلة تاريخية يعيشها العالم لم تعد تتيح إمكانيات البقاء والاستمرار إلا للأمم القادرة على دخول مغامرة العصر بكل قواها الحية والفاعلة وإمكانياتها الفكرية والعقلية.

من السهل أن نجد تفسيراً لسلوك ذلك الرجل الذي حرمته الظروف من المواهب والمؤهلات وفاتته فرص التعليم والاطلاع فعاش محروماً من زينة العلم والمعرفة وكتعويض عن هذه المواهب والمؤهلات الغائبة صار يسعى في الحياة معتمداً على الحيلة والتزلف والتملق وإذلال نفسه طمعاً وتسلقاً ووصولا إلى أماكن لا تؤهله لها مواهبه وكفاءته ننفر منه ونشمئز من سلوكه. ونرى رجالاً بسطاء مثله ومع ذلك يعتمدون في رزقهم على الجهد والكدح والعرق ويحتفظون بهاماتهم عالية وجباههم نظيفة فنأسف له ونتألم لسقوطه ولكننا نستطيع أن نفهم دوافعه ومبرراته، وتاتي دهشتي الكبرى عندما نجد رجلاً أكرمته الظروف بكل المؤهلات والمواهب التي تتيح له سلوكاً كريماً ومستوى لائقاً لمعيشته علما وموهبة وثقافة ومهنة شريفة تسد حاجته، ومع ذلك

يستخدم ذات الأساليب التي يلجأ إليها الرجل الآخر المحروم من المواهب والمؤهلات يزاحمه في تسلقه وإذلال نفسه وبيعها رخيصة في أسواق الكذب والنفاق، ليس على فمه إلا الثناء الرخيص الكاذب لكل من يراه يجلس على كرسي من كراسي النفوذ والإدارة صغيراً كان أو كبيراً يفتح له الأبواب ويحمل له الحقائب ويتطوع لقضاء حوائجه من السوق ونتساءل بحرقة ولوعة لماذا يلجأ رجل مثله إلى هذه الاساليب وهو في غنى عنها؟ وإذا كان للعمل كرامته فكيف تأتي هذه الكرامة إذا لم يحافظ عليها أصحاب العلم أنفسهم؟ وكيف يكون العلم علماً إذا فرغ من محتواه الأخلاقي وصار مجرد خرقة استخدمها صاحبها لغسل البلاط وتلميع أحذية النافذين، وهو لا يفعل ذلك تقية دفعا لاتهام يطارده أو اتقاء لشر يلوح في الأفق.

إنه يفعل ذلك تطوعاً ومهانة وإذلالاً لعلمه وشخصه. ولا يفعل ذلك إنقاذا لأطفاله من الجوع لأنه وجد نفسه عاطلاً بلا مورد للرزق فهو لديه العمل والرزق ولكنه يريد مع العمل والرزق نفوذاً فيسعى إلى طلبه عن طريق التمسح بأعتاب من هم أعلى وظيفة أو منصباً وإذا كانت رسالة العلم تطالبه بأن يتصدى لمثل هذه الممارسات الزائفة، كأن أحدا لن يرغمه على ذلك إذا أراد أن يؤثر السلامة ويختار العزلة والابتعاد عن المشاكل والمعارك، ولكن أن يصبح هو ذاته مصدراً لهذه الممارسات ولاعباً في سيرك الحواة والدجالين والمتسلقين والأدعياء ممن لجئوا إلى هذه الأساليب كتعويض لغياب العلم والموهبة والثقافة فهذا ما يقف أمامه المرء حائراً متأملاً هذه النماذج الكثيرة من المثقفين والمتعلمين الذين يبتذلون انفسهم متسائلاً بينه وبين نفسه لماذا لا

يكون العلم عاصماً وحامياً ورادعاً لهؤلاء الناس من مثل هذا السقوط؟

- - ١٣ - -

كان الصديق الذي وجدته يضم حقائبه عائداً إلى الوطن، قاطعاً علاقته بوطن المهجر الذي جاء إليه لاجئاً فوجد فيه رزقاً وأمنا، يرد على تساؤلي قائلاً :

- كيف تريدني أن أعيش في وطن أسمع فيه كل يوم من يطالبني بتهجية اسمي؟

ولذلك فهو يضحي بما يلقاه من استقرار عائداً إلى وطن مثل لبنان، تمزقه الخلافات والحروب الأهلية وطواحين البطالة والغلاء، راضياً بأن يعيش مع احتمال أن يتهجى أحد القناصين دمه بدلاً من أن يتهجى اسمه للأجانب كل يوم عشرات المرات.

والحقيقة فإن تهجية الاسم كانت دائما إحدى المنغصات اليومية التي يواجهها العربي الذي يقيم في بلاد أجنبية مثل بلاد الغرب.

وما أن تفتح هاتفا لأي مكان حتى تجد عاملة البدالة على الطرف الآخر تطالبك بأن تتهجى اسمك وبرغم أنك نطقته لها محرفاً وممسوخاً وممطوطاً تحولت فيه العين إلى ألف والغين إلى جيم والحاء إلى هاء لكي يستقيم نطقه مع اللغة الأجنبية التي تكلمها بها فإن ذلك كله لا يرضيها ولا بد أن تتهجى لها هذا الاسم الغريب العجيب تكتم غيظك وتتهجى لها الاسم للمرة الأولى ومع ذلك فهي لا تفهم وتطالبك بأن تتهجاه بطريقة أكثر وضوحاً فهل الباء مثل باء باريس أو بابل، وتتنازل عن شيء من كبريائك وتبدأ طوافك حول عواصم العالم الكبرى وجباله وأنهاره فحرف الراء مثل الراء في روما والباء مثل باء برلين، والميم مثل حرف الميم في موسكو والألف

مثل حرف الألف في جبال الألب، والدال مثل حرف الدال في نهر الدانوب، وهكذا بعد هذه الجولة المضنية المرهقة التي عبر فيها المحيطات تصل إلى موظفة أخرى، وتحمد ا أنها لم تطالبك هي الأخرى بأن تعيد التهجية فقد أصابك الإرهاق والإعياء وسوف تسقط السماعة من يدك هلعاً ورعبا لو أنها فعلت ذلك، ولكن مكالمة أخرى بعد هذه المكالمة تريد أن تجريها مع مطعم أو فندق أو وكالة سفر تعيدك إلى الموقف نفسه وترغمك مرة أخرى على القيام بتلك الجولة، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد لأن عامل الفندق يريدك أن تتهجى اسم صاحبك الذي تسأل عنه، ولأن له اسما عربيا غريباً فإن عليك أن تبحث عن مدن أخرى وأنهار أخرى وجبال أخرى تتفق حروفها الأولى مع حروف اسمه، لقد وجدت مدينة اسمها كامبالا لحرف الكاف وأخرى اسمها جاكارتا لحرف الجيم وجبلا اسمه أولمبيا لحرف

الواو، ولكن ماذا تفعل عندما يواجهك حرف لا معادل له في هذه اللغات اللاتينية ولا تعلم الطريقة التي يكتبه بها صاحبك غير أن تسلم أمرك بعد أن ضاعت جولتك كلها سدى وجاء هذا الصديق وذهب دون أن تعرف طريقاً للاتصال به.

ولذلك فإن هذا الرجل الذي حزم حقائبه هاربا من هذه البلاد عائداً إلى حقول النار والالغام في بلاده أو إلى رعي الاغنام في قريته كان محقاً وصائبا وهو يتخذ قراره الحاسم السريع فهو على يقين بأنه لن يجد أحداً هناك يسأله بأن يتهجى له اسمه مصحوبا بعواصم العالم وأنهاره وغاباته سوف لن يسأله إلا عن هويته فيمدها إليه صامتا وقد يقرر قتله أو الإبقاء على حياته وفقاً لما جاء في تلك الهوية ولكن ذلك أرحم وأسهل من أن يتعرض كل ساعة من ساعات النهار لمن يطالبه بتهجية اسمه وكأنه جاء من أودية العفاريت والغيلان.

كلما رأيت مبعوثا جديدا توفده إحدى الدول الكبرى لاستقصاء الحقائق وتقديم المبادرات وضعت يدي على قلبي لأنه غالباً ما ياتي ليعيد القضية إلى خانة الصفر بعد الجهد النضالي والسياسي الذي دفع بالقضية نحو مشارف جديدة وأصبح مشهد هؤلاء الزوار مشهداً رتيباً، مكرراً ومملاً، لا يثير إلا الحنق والغيظ.

فمنذ أن بدأت القضية ونحن نرى موفداً يأتى بمبادراته ورغبته في معرفة الحقائق على أرض الواقع ثم يمضى دون أن يترك أثاراً ليأتى بعده زائر جديد يحمل حقيبة مليئة بأوراق أخرى ومبادرات أخرى تهلل له الإذاعات ويسهب المحللون في تفسير المتغيرات الدولية التي أوجبت حضوره ثم يخت في

بحقائبه وحقائقه ومبادراته تاركاً وراءه أفقاً مليئاً باشارات التعجب والاستفهام.

موفودون كثيرون جاءوا وذهبوا وسوف لن تك في صفحات هذه الصحيفة لسرد كل أسمائهم ومبادراتهم لو عدنا إلى الأرشيف وجئنا لتسجيلها لكنني أذكر أن ايزنهاور عندما كان رئيساً لأمريكا أوفد نائبه ريتشارد نيكسون إلى المنطقة العربية لاستقصاء الحقائق وتقديم المبادرات منذ أكثر من اثنين وثلاثين عاماً مضت ولا شك أن الذين رأوه يأتي موفدا من هذه الدولة الكبرى قد استبشروا خيراً بمجيئه ولا شك أن أجهزة الإعلام قد تابعت رحلته وتسقطت أخبار مفاوضاته ومحادثاته وأسهبت في شرح وتحليل النتائج التي سوف تسفر عنها تلك الزيارة وذهب الرجل ليصبح بعد ذلك رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، وكان كل ما استطاع عمله هو أنه أرسل موفوداً جديدة لتقصى الحقائق وتقديم المبادرات

ليبدأ القصة من أولها ويعيد بها دورة جديدة من دورات العبث واللا جدوى وكان مندوبه للأسف الشديد صهيونياً متطرفاً اسمه هنري كسينجر جاء إلى المنطقة تسبقه دعاية كبيرة بأنه عبقري السياسة الأمريكية وصاحب الحلول السحرية للمشاكل والأزمات وقام برحلاته المكوكية، وانتظرنا الخير على يديه، فإذا به يضيف أزمات جديدة إلى أزمتنا ويسفر عن انحياز كامل لدولة العدو الصهيوني وها نحن نسمع اليوم احتمال أن تكون له سلطة مرجعية في الإدارة الأمريكية الجديدة وهو أمر لا يدهشنا طالما أنه طفل مدال للصهيونية العالمية التي تتعهد بالرعاية والعناية في كل العهود. وإذا كان أثناء وظيفته كمستشار للأمن القومي أو وزير للخارجية قد استخدم أقنعة الوظيفة متظاهراً بالحياد والموضوعية فإنه ما إن غادر مناصبه حتى كشف هذه الأقنعة وأظهر بوضوح صهيونيته وعداءه للعرب، وأذكر أنه

كتب تحليلاً سياسياً عن الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ كان مرافعة دفاع عن ذلك الاجتياح وما رافقه من مجازر وانتهاكات لكل القيم الإنسانية فلا أدري بأي وجه يعود وقد سقطت أهليته لأن يكون حكماً في الصراع العربي الصهيوني، ولكن استخدام هذا المنطق لم يعد جائزا في لعبة كهذه إذ متى كان المحكمون الذين يأتون من أمريكا إلى بلادنا مؤهلين لهذه المهمة وهم يأتون من لب اللوبي الصهيوني والمؤسسات التي تقدم الدعم والحماية والسلاح والأموال لدولة العدو؟

لا شك أن الرئيس الأمريكي الجديد سوف يبادر هو الآخر بإرسال مبعوثيه الذين يقدمون المبادرات الجديدة ويسعون لمعرفة الحقائق على أرض الواقع وسوف نقرأ ونسمع كلاما في الصحف والإذاعات عن بوادر الحل القادم على صهوة جواد أمريكا ولكن المسألة أصبحت أشبه بمشهد في

مسرحية عبثية فنحن دائماً في انتظار " جودو " الذي امتنع عن المجيء في المسرحية الشهيرة، ولكنه في مسرحيتنا الشرق أوسطية يأتي وكأنه لا يأتي لأن مجيئه لن يكون إلا مزيداً من الخيبة والفشل ومزيداً من الاجترار والتكرار على حساب أهلنا الذين يعيشون تحت كابوس الاحتلال سوف لن يحدث شيء جديد في غياب إدارة عربية موحدة قادرة على دخول المعركة السياسية بقوة وصلابة وشجاعة، ترفض منطق العبث وتضع المجتمع الدولي أمام مسئولياته، وترغم الدول الكبرى في الشرق والغرب على أن تتخذ موقف الحكم العادل بعيداً عن هذا التحيز الأعمى لدولة العدو الصهيوني.

لقد جاءت انتفاضة الحجارة وتواصلت كل هذه المدة لتحرك هذا الواقع الراكد الذي عرفته القضية وتمنح العرب فرصة تاريخية لتعزيز هذا النضال الذي يتحقق فوق الأرض المحتلة بجهد نضالي

وسياسي يدفع بالقضية نحو الحسم وإنجاز الحق والعدل. أن الدم الذي يتدفق فوق الأرض ويبذل عطاء سمحا كريماً للوطن يجب أن يواكبه جهد عربي يتفق مع حجم هذه التضحيات وتسخر لدعمه كل الموارد والإمكانات بدل الانتظار البائس العقيم لموفد جديد يعيد تمثيل مشهد عبثي رأيناه يتكرر أمام أعيننا على مدى أربعين عاماً.

- ١٥ -

من القضايا التي تلح كثيراً على الذهن العربي هذه الأيام قضية التقنية والتوسع في إنشاء المراكز المهنية وتوجيه التعليم في المدارس المتوسطة والكليات الجامعية نحو العلوم الطبيعية والدراسية الفنية التقنية تحتاج أن نوليها قدراً كبيراً من التفكير والتأمل فلا شك أن حاجتنا إلى التحديث والتقنية والتصنيع وملاحقة العصر الذي يسير بالعلم صارت

حاجة ملحة عاجلة لا تحتمل أي إبطاء أو تأجيل وتحديا لا بد أن نواجهه بكل ما نملك من قدرة على المواجهة والتحدي ولكن أمرا كهذا لا يمكن أن يأتي دون استراتيجية ذات أبعاد حضارية تعرف أهدافها وغاياتها وتبني مخططات التقنية والتحديث وفق هذه الغايات والأهداف لأننا عندما نترك هذا الاتجاه إلى التقنية واستحداث مراكز التدريب المهني دون أن نوظف ضمن مشروع نهضوي حضاري عربي فقد لا نصل إلى النتائج التي نريد تحقيقها بل إن هذا الاتجاه قد يأتي بنتائج عكسية عندما نرمي إليه بالطاقات المبدعة لتصبح فائضاً من خريجي المراكز المهنية ممن يتقنون النجارة واللحام والحدادة ولكنهم مفرغون من أي محتوي فكري وثقافي يدفع فوتيرة التقدم إلى المشارف الحضارية التي نريدها.

ومن بين الأصوات الكثيرة التي ترتفع حماسا لهذا الموضوع ومطالبة بإنشاء مزيد من المراكز

والمعاهد والكليات الفنية والتقنية نسمع أحيانا صوتا يرتفع على خجل وحياء يحذر من الاندفاع في هذا الطريق دون تبصر أو روية أو خطة شاملة تراعي مختلف الأبعاد التي يحتاجها البناء الحضاري بوهم أن التقنية صارت هي مفتاح العصر وهي السبيل الوحيد إلى تحقيق طموح المجتمعات العربية في تجاوز الواقع المتخلف الموروث عن عهود التبعية والاستعمار لأن الأمر أكثر تعقيدا من مجرد وصفة سحرية جاهزة تدخلنا إلى قلب العصر وتقضي على كل مشاكل التخلف فهو يتصل ببنية فكرية ومدارس فلسفية وضعت القواعد والأسس لهذا البناء في مجتمعات العالم الصناعي وعندما نأتي نحن ونقيم هذا البناء دون أساس متين من الفكر فإنه لن يكون بناء نحصن به أنفسنا ونعزز به مستقبلنا ونضمن به أمن وسلامة شعوبنا بقدر ما يكون مصدر خطر يهدد

حياتنا عندما يتقوض هذا البناء الواهي ويتحول إلى أنقاض.

إننا لا نستطيع اليوم أن نقول إننا لا نعيش أزمة في مجالات العلوم الإنسانية والنظريات الاجتماعية وغير ذلك من المعارف والأفكار والعلوم، ومعنى ذلك أن القول أن المسألة مسألة تقنية تنتهي عند إنشاء مراكز التدريب المهني قول فيه الكثير من الخداع والتضليل. إنني شخصيا لا أملك رأيا جاهزا حول هذه القضية ولكي أكون صادقاً مع القارئ فأنني أقول إنني أحد الذين يملأهم هاجس التحديث والتقنية، ولأنني لم أجد في خزانة أهلي سوي الكتب اللغوية والأخرى التي تشرح دلائل الخيرات فقد تنبهت في مرحلة مبكرة إلى صدق القائلين أن الجانب الناقص في ثقافتنا العربية هو التقنية والعلوم الطبيعية، وكتبت بعض المقالات التي تتحمس لإكمال هذا الجانب وتوجيه التعليم نحو هذه الوجهة ولكنني الآن أقول

إنني بمثل خوفي من أن تصبح الثقافة مجرد شرح لدلائل الخيرات فإنني أيضاً أخاف من أن تصبح خلاصة المجتمع العربي مجموعة من المشتغلين بالحدادة والنجارة واللحام. إنني لا أحمل إلا التقدير العميق لأصحاب هذه المهن وأعترف بحاجة المجتمع إليهم ولغيرهم من القادرين على العمل المنتج وليس مجرد العمل الفكري أو النظري وما أطالب به هو توظيف هذه الامكانات ضمن خطة تضع في اعتبارها الاحتياجات اللازمة لعملية البناء الحضاري كافة وأعتقد أن أكثر القضايا إلحاحاً الآن، هي إعادة النظر في مفاهيم التدريس وأساليبها بهذه المراكز والمعاهد والكليات المهنية إذ أن كل ما نراه في هذه المدارس هو التركيز على الدراسة الحرفية والمهنية دون تدعيم هذه الدراسة بمناهج تضع في اعتبارها بناء الإنسان شاملاً ومكتملا، وتقدم له المعرفة المتخصصة بمثل ما تقدم له المعارف الإنسانية العامة

التي تسهم في إعداده كمواطن يعرف حقوقه وواجباته قبل أن يكون إنساناً مهنياً لا يعرف شيئاً سوى مهنته.

- ١٦ -

إذا كان المؤرخ الانجليزي الكبير " أرنولد توينبي " قد تنبأ بأن تتحقق وحدة الأمة العربية منذ عقدين من الزمان الذي مضي ثم مات دون أن يرى تنبؤاته تتحقق، فليس معنى ذلك أن توينبي كان قارئاً غشيما للتاريخ أو أن المراجع التي استند إليها كانت ناقصة ومبتورة لا تؤدي إلى هذه النتيجة.

لقد كان توينبي أحد مؤسسي النظريات الحديثة في علم دراسة التاريخ، ومراجعه لم تكن إلا عهود الزهو العربي التي أسهمت في رقي الإنسان وتعزيز مسيرته الحضارية ثم إنه كان رجلاً من خارج الوطن العربي أي إنه بعيد عن أي تلوينات عاطفية أو وجدانية تؤثر على نظرته الصحيحة للتاريخ لقد رأى

بقوة العقل والعلم أن بلدان الوطن العربي بعد أن حققت استقلالها وحررت أرضها وترابها لم يعد لها أي مبرر لأن تبقى منفية عن تاريخها مذعنة لهذا الميراث الاستعماري الذي قسمها وفرقها.

لقد انتهى العامل الخارجي الذي فرض التقسيم ولا بد أن يعود الوطن العربي إلى وضعه الطبيعي وطنا واحداً يتكلم لغة واحدة وتجمعه رقعة جغرافية واحدة وعقيدة واحدة يدين بها أغلبية أهله تجمع شعوبه وحدة التراث والتاريخ والثقافة والتجربة النضالية المشتركة، ولم تبق إلا الوحدة السياسية لكي تعلن عن ميلاد قوة جديدة تخرج إلى الدنيا، وراية جديدة ترتفع في الأفق، لقد رأى كل هذا ورأى أن هناك خطراً مشتركاً يهدد هذه الشعوب ولم يعد ممكنا أو مبرراً أن تبقى هذه الأمة ضعيفة ممزقة تنسى صراعها الرئيسي ضد الأعداء ولا تذكر إلا نزاعاتها الصغيرة الهامشية تنشغل بها، ولم تتحقق الوحدة التي

تنبأ بها ذلك المؤرخ الكبير لأن العرب كانوا في وضع أقل من مستوى التحدي المطروح أمامهم فخذلوا أنفسهم وخذلوا تنبؤات المؤرخين، لقد اجتمعت لديهم كل المؤهلات لبناء دولة اتحادية منيعة عزيزة قوية تمنع عنهم الأذى وتواجه المخاطر التي تهدد وجودهم وتجعلهم قوة قادرة على تأكيد حضورها الفاعل في تاريخنا المعاصر، ويبدو هذه الأيام وكأن ثمة صحوة جديدة تغمر الوطن العربي. إن العرب ينتبهون الآن إلى ما فاتهم ويدركون أن عصر الكيانات الصغيرة قد انتهى وأن بين أيديهم فرصة تاريخية لبناء كيان كبير يفرض هيبته على الدينا قبل أن تذهب ريحهم وتأتي نكبات ونكسات وفواجع جديدة تأكل ما تبقي من أرضهم وكرامتهم، ولهذا صرنا نرى الأفق عامراً بالإشارات التي تنبئ بقرب قيام هذه الوحدة، وما هذه التظاهرة الوحدوية التي تشهدها مدينة مراكش بين خمس دول عربية يجتمع

رؤساؤها لبناء كيان لوحدة المغرب العربي إلا خطوة على طريق الوحدة المنشودة بين كل أقطار الوطن العربي، وهي تأتي مكملة لجهود أخرى تتم على مستوى المشرق العربي بعد أن تم بناء مجلس التعاون الخليجي وبعد أن رأينا دولا مشرقية أخرى تبدأ مسيرتها نحو تحقيق إنجاز وحدوي فيما بينها.

وقد لا ترضى هذه الجهود الوحدوية الحالمين الكبار من المفكرين القوميين الذي يؤكدون أن الأوضاع مهيأة لدولة عربية واحدة تبدأ منذ الآن مباشرة تحقيق المشروع الحضاري العربي وقد لا تكون هذه الجهود في مستوي طموحات المواطن البسيط الذي يريد أن يعود الوطن العربي وطنا واحداً يوفر فرص العمل والانتقال وتبادل المنافع بين أبنائه في اللحظة والساعة، ولكننا ننسى أننا نواجه تراكما عمره ثمانية قرون من التفرقة والتمزق والتراجع الحضاري وننسي أيضاً التجارب الوحدوية التي

صنعتها لحظات عاطفية انفعالية وجدانية سرعان ما تسرب إليها الفشل فتقوضت وانهارت قبل أن يجني الناس ثمارها. إنني أحد المؤمنين بالإرادة العربية القادرة على بناء دولة الوحدة ورفع رايتها منذ الآن، ولكنني بعد هذه التجارب الوحدوية الكثيرة الفاشلة صرت راضيا بأن أرى بناء وحدويا بطيئا، ولكنه ثابت الأركان وقادر على الاستمرار.

إن أهم ما يتوفر لهذه التظاهرة الوحدوية المغربية التي تشهدها مدينة مراكش هو هذا الإجماع على مباركتها والترحيب بها إجماعاً ندر أن نرى له مثيلا في مثل هذه الأحداث الكبيرة، فهو يشمل جميع الناس أغنياء وفقراء أحزاب السلطة وأحزاب المعارضة المؤيدين للحكومات والخارجين عليها أهل اليمين وأهل اليسار جميعهم يجمعون على الترحيب بهذه الجهود الوحدوية ولم نجد صوتاً واحداً يعارضها أو يجد فيها شيئاً يتناقض مع مصالحه بما في ذلك

الفئات التي تنسب نفسها لأصول غير عربية ؛ لأنها وحدة تأتي لمنفعة الجميع وتحقيقا لمصالح كل المواطنين وهي بمثل ما تحتفل بعوامل الوحدة وتعمل على تأكيدها وترسيخها فهي لا تنكر التنوع داخل الوحدة لأن التنوع ليس إلا إثراء وإغناء لعوامل الوحدة، ولهذا فإن المتفائلين من أمثالي يضعون رهانهم على هذا الإجماع ويعتبرونه سببا كافياً لأن تحقق هذه الوحدة نتائجها وتكون قولاً وفعلاً لبنة أولى في البناء الشامخ الكبير وخطوة أولى على الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق حلم الأجيال في بناء دولة العرب الواحدة.

- ١٧ -

تخذلنا أحيانا القدرة على التعبير، تغيب الكلمات التي تنقل مشاعر الود والامتنان، فنقف صامتين في مواجهة إنسان قريب إلى أنفسنا أردنا في

لحظات التأثر والانفعال أن نقول له شيئاً يعبر عن المشاعر التي نحملها له ولكن الكلمات لا تأتي فنكتفي بالصمت والوقوف عاجزين عن أي كلام أو تعبير.

وكثيراً ما يكون الصمت أكثر تعبيراً عن الكلام وأكثر جمالاً وبلاغة وقدرة على نقل المشاعر من أي كلام نقوله في تلك اللحظات المشحونة بالعواطف والانفعالات.

إن الحديث عن الحب والمودة والامتنان يفقد معناه نتيجة لكثرة الاستعمال، إنه مثل الأحجار الكريمة التي لن تكون كريمة إذا كثر تداولها واستعمالها وتراكمت حتى صارت مثل حجارة الطريق، إن الاسراف في الكلام يضر بهذه العواطف ولكن الامتناع عن الكلام امتناعاً دائماً يصيبها بضرر أكبر، وإذا كان التعبير عن العواطف يحتاج إلى الصمت فهو يحتاج أيضاً إلى كلام وما أكثر اللحظات التي نخذل فيها أصدقاءنا عندما نواجه موقفاً يستحق

الشكر فنقابله بصمت لا يحمل تأثراً ولا انفعالاً بحجة أنهم يعرفون عواطفنا ولا يحتاجون مثل الغرباء إلى تأكيد أو برهان على العواطف الدافئة التي نحملها لهم أو تعبير عن هذا الشعور بالامتنان لما قدموه لنا من عون ورعاية، وكأننا نفترض في هؤلاء الأصدقاء أنهم يقرءون ما في الصدور ويعلمون ما يجول في الضمائر. إنهم قد يقرءون شيئاً بداً في وجوهنا أحياناً ويعتبرونه شكراً وامتناناً لم نفصح عنه، أو لم نجد الكلمات المناسبة للتعبير عنه، فيبادلونه بصمت يحمل الشكر والامتنان. ولكن هذه اللحظات النادرة والبالغة الشفافية لا يمكن اعتمادها قاعدة في كل الحالات والمناسبات، وبمثل ما نحتاج أحيانا إلى أن نسمع هذه الكلمة الودودة الحنونة الحادبة فإن اصدقاءنا أيضاً ينتظرون سماع هذه الكلمة منا. بل إننا نحتاج إلى التعبير عن هذه العواطف حتى ونحن نتعامل مع أقرب الناس إلينا ممن يقاسموننا حياتنا من أهل بيتنا

وأفراد أسرتنا. لقد انتهى عهد تلك التربية القديمة عندما كانوا يعتبرونه ضعفاً أن يتبسط الأب مع أبنائه أو يفصح لهم عن عواطف الحب التي يحملها لهم أو يشاركهم لحظات البهجة والفرح، تلك التربية التي جسدها لنا نجيب محفوظ في شخصية " الأب " في ثلاثيته الشهيرة عندما كان أفراد الأسرة لا يرون من " السيد عبد الجواد " إلا وجها متجهما قاسياً يخالف الوجه الآخر الذي يظهر به للآخرين.

انتهى عهد تلك الأساليب التربوية التي كانت تعتمدها الأسرة العربية، ولكن شيئاً منها بقى معنا يطالبنا دائماً بأن نقمع في نفوسنا مشاعر الحب والمودة والامتنان والاعتراف بالجميل، ونمتنع عن التعبير عن عواطفنا لهؤلاء البشر القريبين منا حتى في أكثر اللحظات تأثراً وانفعالاً.

إن الشعوب العربية من أكثر شعوب الدنيا عاطفة، هكذا تقول الأعمال الأدبية بمثل ما تقول

الدراسات النفسية والاجتماعية. ولكن هذا الثراء في العواطف غالباً ما يقابله بخل في التعبير عنها. وقد آن الأوان لأن نصل إلى توازن وتوافق بين الحالتين، لكي لا تبقي هذه العواطف مثل المياه المدفونة تحت رمال الصحراء ومن فوقها أرض يقتلها القيظ والعطش.

- ١٨ -

هل أجازف بالقول أن هذه الخاصية إنما هي من الخصائص التي تميز حياتنا وتطبع سلوكنا إلى الحد الذي يمكن اعتبارها أحد مكونات شخصيتنا العربية؟

هل أقول إن الاعتماد اعتماداً كبيراً في حياتنا على " المصادفة " التي نمنحها ثقتنا ونترك لها أنفسنا ونسلم لها قيادنا إنما هو منهج من مناهج العمل والحياة لدينا؟

إنني أسال هذه الأسئلة لأنني صرت أخاف كثيراً من هؤلاء الأصدقاء الذين لا يؤمنون إلا بالعلوم الإحصائية والتجارب الميدانية عندما يأتون ويطالبون بالحجة والبرهان ويسألون إن كان هذا الرأي قد جاء مطابقاً لنتائج البحوث الحقلية في مجالات التربية والاجتماع وعلم النفس، فأبادر بالقول أن الأمر ليس إلا استقراء شخصياً لما أراه من سلوكيات وممارسات ولا أملك من الدلائل والقرائن إلا قرينة الصدق مع النفس وإنني قبل أن أفتش عن الظاهرة لدى الآخرين أفتش عنها في نفسي ثم أحاول أن أعرف أن كل هذا الضعف الذي أحس به ضعفاً جاء نتيجة التربية التي نشترك فيها جميعاً مع أبناء بيئتنا وطبيعة التفكير الذي يميز هذه التربية أم أن للأمر علاقة بظروف تختلف وتتمايز بين منطقة وأخرى وبين شخص وآخر.

وهذا الكلام الذي أقوله اليوم ليس إلا تنويعا وإضافة لفكرة سبق أن كتبتها في هذا الزاوية عن ضيقنا بالتخطيط ونفورنا منه، ولكي أعطي المصادفة حقها أقول إنها كانت سببا في كثير من المناسبات الطيبة التي تسوقها إلينا واللحظات المبهجة التي تأتي دون ترتيب أو تخطيط فيزيد هذا الطابع الفجائي في بهجتها. ولو اتبعنا برنامجا ثابتا في حياتنا لحرمنا منها ومن بهجتها وسأكون ظالما لأصدقائي لو قلت إنني أضيق بزياراتهم المفاجئة التي تأتي دون موعد أو ترتيب وظالما لنفسي لو قلت إنني أتردد في طرق بيت صديق لم أهاتفه أو أتواعد معه على اللقاء كما سأكون ظالما لبعض القرارات الحكومية التي تهبط علينا فجأة وتمنحنا عطلة إضافية لم نكن نعمل لها حسابا، ولكننا للأسف الشديد نعيش في عالم أهوج أرعن لا يعرف جمال المفاجآت التي تسوقها المصادفة وبهجتها، فصار يربط نفسه بالبرامج

والتخطيط المسبق لكل شيء وينظم وقته تنظيما جهنميا يجعل لكل دقيقة حسابها. واعتمادنا الدائم على المصادفة يجعلنا في نشاز دائم معه ونحن مجبرون بحكم التجاور والمصالح المتبادلة على التعامل مع هذا العالم ووضعه في حسابنا، لأننا لو أسقطناه من حسابنا لأسقطنا هو الآخر من حسابه، ولن تكون الحسبة إذ ذاك لصالحنا ولا أرى سبيلاً لحل هذه المعضلة إلا بالوصول إلى مصالحة بيننا وبينه. مصالحة لا تضيع فيها المصادفة هذه القريبة والعزيزة على نفوسنا ضياعا كاملاً، وإنما نحتفظ لها بهامش كبير من حياتنا لكي تبقي معنا تقدم لنا شيئاً من التسلية والترفيه والمفاجأة في حين نمنح الباقي لما يريده العالم وما يتطلبه العصر من تنظيم وتخطيط بحيث يمكننا التحمل مع هؤلاء الناس الذين يربطون أنفسهم ويقيدون أيديهم واقدامهم بسلاسل من البرامج والمخططات المواعيد.

ويمكن أثناء ذلك توعيتهم وتنويرهم بمزايا المصادفة ودعوتهم للاعتماد اعتماداً كاملاً عليها لقد جئنا إلى هذه الحياة مصادفة، وسوف نذهب منها مصادفة فلا تخطيط ولا تدبير ولا برامج يمكن أن تفيدنا في تلك اللحظة فلماذا لا نجعل المصادفة أسلوبا ومنهجا في الحياة، ولعلهم بمضي الوقت يقتنعون بآرائنا فيتخلون عن هذه الطبيعة الغريبة التي تلزمهم بسجن أنفسهم ومحاصرتها بالبرامج والمخططات فينتهي التناقض الذي بيننا وبينهم. وننطلق في الحياة سعداء، نمنح أنفسنا للمصادفة ولا نعترف بسيد علينا سواها.

- ١٩ -

كثيراً ما نجد أصحاب الوظائف الإدارية القيادية الذين يبقون في مناصبهم زمناً طويلاً يتحدثون عن المؤسسة أو المنشأة أو الإدارة التي

يتولون قيادتها وكأنها صارت ملكيتهم الخاصة، وهو شعور ينشأ عن طول البقاء في هذه المؤسسة التي تلونت أساليب تسييرها وإدارتها بلون آرائهم وأفكارهم.

ونشأت بمضي الزمن علاقة خاصة بين المنصب وصاحبه وبين الإدارة ومديرها حتى ارتبطت في ذهنه وأذهان الناس به وارتبط بها وصار يتعامل بوحي من هذا الإحساس دون حاجة إلى القول إنه خلال هذه الفترة الطويلة غادر المؤسسة موظفون بحكم السن أو بحكم الظروف الخاصة وجاء موظفون جدد لا بد أن لهذا المسئول رأيا في تعيينهم وصار صاحب فضل عليهم ونشأت داخل المؤسسة أغلبية تدين له بالولاء حتى صار هذا الولاء حقاً يطلبه من جميع الموظفين، وهذه ليست قاعدة تصدق على كل الحالات ولكن عندما نضع في الاعتبار الميزات التي تحملها الوظائف العامة في

بلادنا نجد أنها تصدق على حالات كثيرة وأنا لست مع فكرة تغيير أصحاب المناصب الإدارية كل عام أو عامين لأن فكرة نجاح هذه الإدارات والمؤسسات يحتاج إلى استقرار وإلي قدرة على التخطيط الذي يتيحه ثبات المسئولين في مناصبهم. ولكن عندما تطول هذه المدة إلى أن ينشأ مثل هذا الإحساس بالملكية ويتصور هذا المسئول أن أقداراً علياً اختارته لتولي مهمة الإدارة التي لا يستطيع غيره توليها عندها يصبح التغيير أمراً ضرورياً لمصلحة المسئول ومصلحة الوظيفة، لأن مثل هذا الإحساس سوف يهدم المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه العمل العام ويمنحه طابعاً شخصياً ذاتيا يحيد به عن رسالته وأهدافه ويكون من المفيد عندئذ أن نأتي إلى هذه الإدارة بقيادة جديدة تتمتع بروح جديدة وأفكار جديدة.

إن اغلب الذين يتولون مثل هذه المسئوليات الإدارية يعتبرون مثل هذه المناصب تحديداً

لإمكاناتهم فيجتهدون في إثبات نجاحهم وتأكيد جدارتهم بالوظيفة ثم يعتمدون فيما بعد على هذا الجهد الذي بذلوه والرصيد الذي حققوه من النجاح وعندما تطول بالواحد منهم المدة يكون قد استهلك طاقته على الإضافة والإبداع والابتكار في مثل هذه المجالات الإدارية المحدودة ويصبح من المفيد أن يأتي إلى الموقع من يجد فيه تحديا يدفعه للاجتهاد في تقديم أفكار جديدة.

وليس معني ذلك بطبيعة الحال الاستغناء عن هذه الكوادر والكفاءات التي تدير المؤسسات ودواليب الدولة ولكن الانتقال من موقع إلى آخر سوف يقضي على ظاهرة " شخصنة " المناصب الإدارية كما يقضي على هذا الإحساس بالملكية الخاصة تجاه المنصب.

إننا نتحدث كثيراً عن الفكر والثقافة والسياسية والتربية والاقتصاد والصناعة والعلوم، ونحن ننظر

في أوجه التخاف أو فرص النهوض والتقدم التي تبحث عنها مجتمعاتنا، ولكننا ننسى الإدارة التي أصبحت علماً من أكثر علوم العصر خطورة واستقطابا لاهتمام الدارسين والباحثين ننسي أن هذه الإدارة التي صارت مفتاحاً من مفاتيح الدخول إلى العصر هي أكثر الجوانب تخلفاً في بلادنا.

والاهتمام بها يجب أن يسبقه الاهتمام بكل المجالات الأخرى لأن أي تقدم نحققه في تلك المجالات لن نري نتائجه إذا لم نؤسس إدارة قادرة على توظيفه واستخدامه.

هناك قول يؤكد إحدى حقائق الحياة بتعبير شديد الوضوح والاختصار وهو أنه لكي تكون أفعالنا صحيحة يجب أن يكون تفكيرنا صحيحاً. قول بسيط ولكنه مثل كل الأقوال البسيطة التي تأتي دون

نواقيس أو أجراس لتقدم إضاءة باهرة تكشف لنا سر ما يمكن أن نرتكبه من أخطاء على مستوى العمل والسلوك والممارسة.

وندرك من خلاله إلى أي مدى يقترن العمل بالفكر، فالفكر الخاطئ لن يؤدي إلا إلى أخطاء في العمل والممارسة، وإذا كان هذا القول يصدق على مستوى الأفراد فإنه يصبح ضرورة على مستوى الدول والحكومات والسياسات التي تدير مصاير الشعوب والأوطان والفكر الصحيح لم يعد هذه الأيام مغامرة واجتهادات شخصية وردود أفعال تلقائية واستجابة عفوية عاجلة للتحولات التي تطرأ في مجالات العمل السياسي، وإنما صار هذا التفكير إنتاجا مؤسسيا بمعنى أنه يعتمد على استراتيجية طويلة المدى وعلى حصيلة من المعلومات والحقائق وما تقدمه مراكز البحث العلمي من دراسات وبحوث

تأخذ في حسابها معطيات الواقع والظروف الموضوعية والمتغيرات الدولية.

وإذا كانت أنظمة الحكم تسعى إلى المشاركة الشعبية في صنع القرار والاعتماد على العقل الجماعي للأمة في رسم المسار العام لسياستها، فإنها تعتمد أيضاً على ما تتيحه منجزات العصر من علوم وما يتوفر لديها من عقول وإمكانات فكرية لوضع هذه السياسة موضوع التنفيذ.

ونسمع بعض الزعماء والمسئولين القياديين في الوطن العربي يتحدثون كثيراً عن المأزق الحضاري الذي تعيشه أمتنا وعن ظروف التخلف التي يناضلون للخروج من أطواقها ودوائرها دون أن نسمع عن جهد يبذل على المستوى القطري أو مستوى العمل العربي المشترك للاستعانة بهذه الثروة الهائلة من العقول والمفكرين والمبدعين وأصحاب الرأي ومشاركتهم في وضع قاعدة فكرية للعمل

السياسي وصياغة ملامح المشروع النهضوي الحضاري العربي الذي يضع الأمة على أعتاب مرحلة جديدة من التقدم والنهوض. يكتب هؤلاء المفكرون كتابتهم ويقيمون بين الحين والآخر ندواتهم ولكننا لا نحس بأن الكتابات أو هذه الندوات كانت رافداً يغذي العمل السياسي ويؤسس له قاعدة فكرية تؤمن له منطلقات صحيحة تقود بالتالي إلى أفعال صحيحة.

إنني لا أدعو إلى أن بتخلى هؤلاء المفكرون عن دورهم في إيقاظ الوعي وتأسيس رأى عام مستنير ولكني أدعو إلى درجة من التفاعل وتنسيق الجهود بين العمل الفكري والعمل السياسي فليس معقولاً ولا مقبولا أن تبقى هذه العزلة قائمة بين أصحاب الفكر وأصحاب القرار السياسي برغم خطورة الظروف والأوضاع التي تمر بها أمتنا ولعل أكثر اللحظات توهجا في التاريخ العربي هي تلك

اللحظات التي شهدنا فيها تلاحما بين أهل الرأي وأهل السياسة وحضوراً فاعلاً للمفكرين والمبدعين الذين منحوا العمل السياسي محتوي فكرياً وعمقاً ثقافياً يحقق مقولة الفكر الصحيح الذي يقود إلى أفعال صحيحة.

لا أحاول هنا إسقاط التناقضات بين السياسي الغارق في التعامل بالأحداث الظرفية والآنية والوقائع اليومية وبين المفكر أو المبدع الذي يمثل رؤية أكثر شمولاً وتعاملاً مع الواقع في شكله الكلي وليس بتفاصيله اليومية الصغيرة، ولذلك فهي مسئولية السياسي الغارق في همومه اليومية أن يبحث عن سند وعون لدى هؤلاء المفكرين والمبدعين، يؤسسون لعمله السياسي أرضية فكرية ويمنحونه من عمق وثراء الفكر والإبداع ما يسهم في تحقيق الغايات الكبيرة التي ينشدها.

إن بناء الأوطان مسئولية مشتركة بين كل المواطنين وبمثل ما هي مسئولية الحاكم والزعيم فهي مسئولية المبدع والكاتب والمفكر الذي يجب أن يكون في قلب الأحداث بدلاً من أن يبقي مهملاً ومهمشاً في وطن عربي تحيط به الأخطار والتحديات.

- ٢١ -

الأندلس المفقود، أندلس الحلم والرؤيا وشوق الإنسان إلى عالم أفضل وأسمى نود الوصول إليه. في قلب كل إنسان شوق لاستعادة الأندلس المفقود. ليس بالضرورة أن يكون مثالا تحقق واقعاً في الماضي كما هو الحال مع أندلس التاريخ وإنما مثالاً تجسد في الحلم وتحول إلى فكرة يسطع نورها ويجعلها قريبة من المثل الأعلى الذي نتمناه لحياتنا وحياة المجتمع من حولنا.

ولا شك أن حافزاً أساسيا من حوافز التقدم الإنساني تمثله الرغبة في أن نحقق مستوي أفضل لحياتنا، وشروطاً أفضل لبيئتنا، حتى الإنسان الذي يضحي بحياته ويقدمها فداء من أجل هدف أو حلم أو قضية إنما يجسد أقصى حالات التوق لأن يرى الإنسان عالما أبهى يتحقق من بعده حتى وإن لم يكن شريكاً فيه، ولعل الفنانين والكتاب باعتبارهم يملكون أداة للتعبير وقدرة فائقة أكثر من الآخرين ويتعاملون بمهنة قوامها تجسيد الحلم الجماعي هم أكثر الناس بحثاً عن الأندلس المفقود والرغبة في استعادته وتحقيقه، ويجعلون من حياتهم سفراً دائماً نحو مدينة النور التي تختفي وراء الأفق، حيث ينتهي شقاء الإنسان ويسود العدل والأمن والحب حياة الناس. وكانت هذه المدينة النائمة وراء أبخرة الحلم موضوعاً لقصائد وملاحم وقصص وإبداعات أدبية وفكرية يسمونها الفردوس المفقود، أو المدينة الفاضلة

أو يوتوبيا، ولكنها تبقى تعبيراً عن شوق الإنسان إلى عالم أبهى وأجمل وسعياً إلى بناء عالم جديد متحرر من كل المشاكل والهموم التي تملأ عالم الواقع.

وكان مسافر الصحراء الذي يحرقه القيظ والعطش يهتف قائلاً " لا بد من صنعاء وإن طال السفر " فصنعاء هي الزمن والظل والماء والأصدقاء، والصحراء ليست دائماً متاهة من الرمال والحصى والشمس الحارقة، فهناك صحراء العلاقات وانعدام التواصل الإنساني التي لا تقل قسوة عن صحراء الطبيعة بل هي أكثر قسوة عندما تملأ صدورنا بمشاعر الغربة والعزلة والوحدة فنسعى إلى صنعاء الحب والمودة والألفة والتواصل.

وتحولت صنعاء التراث العربي إلى أندلس بعد سقوط الأندلس وغيابها، فقد ظلت تلك الدولة التي أقامها العربي على ذلك الطرف من القارة الأوروبية تمثل في الذاكرة العربية تعبيراً عن أكثر لحظات

الحضارة العربية مجداً وتألقاً وشموخاً وبغياب الأندلس تكسر الخط البياني الصاعد للتاريخ العربي وشهد أخطر انعراجاته وانحرافاته فقد بدأ ذلك الخط في الانحدار دون صعود ليشهد العالم العربي بعد ذلك أكثر مراحل تاريخه تراجعاً وهبوطاً.

وتحولت الأندلس من نقطة في التاريخ إلى نقطة في الذاكرة ومن أرض كانت ترفع فوقها الرايات العربية إلى رمز ومثل وتحول الشوق إلى استعادة الأندلس المفقود إلى شوق لاستعادة لحظة تائهة في الزمن، وظل العربي الذي أثخنت جسده الجراح والانكسارات يحمد هذا الشوق في قلبه ويرفض أن يتنازل عنه، ومملوءا بشوقه يمضي في الحياة ينظر إلى الوراء أكثر مما ينظر إلى الأمام وينظر في الحلم أكثر مما ينظر في الواقع يسير مثقلاً بتراثه وأمجاده القديمة، مثقلاً بهمومه وخيباته الجديدة، يبحث عن بقعة أرض يقف عليها وينظر

مبهوراً إلى هذا العصر الحديث العامر بالاضواء والألوان والصراعات.

- ٢٢ -

تستمع في إحدى الجلسات إلى حديث عن الرجل الذي قدم مشاركة باسم إحدى الشركات الأجنبية في عطاء حكومي فرسي. رسا العطاء على الشركة وفاز الرجل بعمولة تصل إلى أرقام فلكية لا يستوعبها ذهنك الذي تعود على حسبة القروش والملاليم، وتتساءل إن كان مثل هذه الكسب يدخل فيما يسميه ابن خلدون " الاوجه الطبيعية للمعاش " عندما ناقش الكسب والصنائع والمعاش.

فلا شك أن ابن خلدون لم يعمل حسابا لمثل هذه الكسب، لأنه لم يكن قد رأى على أيامه عطاءات وشركات يابانية وألمانية تشق للعرب الطرقات وتبني لهم السدود والأنفاق والقناطر وتبعث بوكلائها إلى

لجان العطاءات وتمنحهم العمولات التي تصل إلى هذه الأرقام المبهرة، وتحسب بينك وبين نفسك هذا الرقم الذي سمعته والذي جاء نتيجة جلسة في بهو أحد الفنادق أو مكالمة هاتفية أو فلنقل نتيجة عمل ومتابعة وسفر استغرق شهراً أو شهرين لكي لا نظلم الرجل فتجد أنك تحتاج إلى عشرة أعمار إضافية تعمل خلالها ليلا ونهاراً وتجني أثناءها كسباً بمثل ما تجنيه الآن دون راحة أو إجازة أو مرض لكي تحصل على نصف ما حصل عليه من هذه الصفقة التي لم تكلف صاحبها مالا أو ثراء يبدأ به مشروعه، ولم تكلفه عملاً أو دراسة أو عبقرية ولم تأت عن طريق عمل بطولي أو شجاعة أسطورية، والأدهى من ذلك أنه رزق مشروع تقره القوانين وتعترف به النظم المالية الإدارية فهو لا يأتي عن طريق غش أو سطو أو سرقة أو رشوة وإنما تقاضاه صاحبه مقابل خدمة قام بها في وضح النهار ومكالمة هاتفية أو

رسالة جاء بها في جيبه وأوكلت له الشركة بموجبها تقديم العطاء باسمها.

وتقف مذهولاً أمام هذه الأبواب الجديدة المفتوحة للرزق هذه الأبواب التي جاءت تقدم للقادرين على اقتحامها رزقاً موفوراً لا يقتضي جهداً ولا عناء.

وتتصور لو أن كل الناس تركوا مصانعهم ومزارعهم ومخابزهم ومدارسهم ووظائفهم الحكومية وهرولوا يبحثون عن توكيلات يجلبونها من الشركات الكورية واليابانية والألمانية وسوف لن تنسى أن تكون أنت أيضاً من بينهم تبحث لنفسك عن فرصة للحصول على الجرة الذهبية التي حلمت بها طويلاً قبل فوات الأوان.

وإذا كان ابن خلدون قد نسي إدراج هذه المهن الجديدة في المهن التي وضع لها تصنيفا وتبويبا، فليس معنى ذلك أنه لا يعتبرها وجها مشروعا من

أوجه الكسب والمعاش لقد صب جام غضبه على أولئك المشعوذين الذين يدعون أنهم يستطيعون استخراج الكنوز من تحت التراب بالتمائم والتعزيم والسحر ويبيعون الأوهام للناس، ولكن ها نحن قد وصلنا فيه إلى عصر يستطيع فيه بعض الناس استخراج الكنوز دون تمائم أو سحر ولا شك أن ابن خلدون سيكون أكثر إكباراً لهم وإعجابا بقدراتهم الفائقة وسيحاول أن يتأمل الظاهرة ويكشف لنا بعبقريته قانونا يجعلنا جميعاً قادرين مثلهم على صناعة هذه الثروات والعودة إلى بيوتنا بعد رحلة قصيرة إلى بانكوك بجرة مليئة بالذهب..

ولكن أين أنت يا ابن خلدون؟

- ٢٣ -

لا شك أن للطيور غريزة تهتدي بها إلى أعشاشها ولكن ليس لها ذاكرة تحفظ خبرة أجيال من

الطيور التي سبقتها فتتعلم كيف تتجنب الوقوع في فخاخ الصيادين وما يميز الإنسان عن الطيور هو أنه له ذاكرة تحفظ التراث الذي صنعه أسلافه، تتعلم منه، وتستفيد من اخطائه، وتضيف إلى مكتسباته مكتسبات جديدة وتصنع بالتالي تقدمه وتدرجه الحضاري.

ومن هنا يأتي التساؤل الحارق عن السبب الذي يجعلنا نكرر أخطاء سبق أن عرفنا أنها تجلب المهالك والكوارث، نصر على تكرارها وكأننا ألغينا هذا الشيء الذي اسمه الذاكرة.

إن الحديث عن إسناد المسئوليات لمن هم أقدر على أدائها حديث معاد ومكرر وسودت حوله آلاف الصحائف وبمثل ما قرأناه مكتوبا بأقلام الكتاب فقد سمعناه أيضاً من أفواه المسئولين القياديين انفسهم، ومع ذلك فإن نظرة سريعة إلى خرائط المراكز والمسئوليات في أقطار الوطن العربي تخبرنا بأن الذين يطبقون هذا القول هم قلة قليلة وأن أغلب

المسئوليات تذهب في أغلب هذه الأقطار إلى غير أهلها والمؤهلين لها، وإذا ذهبت بصورة نادرة واستثنائية إلى أهلها فدائما تذهب إلى أقلهم خبرة وكفاءة واجتهاداً وننسى أنه لا أمل في بناء نهضة حقيقية مهما كانت وفرة الموارد والامكانيات دون أن نصل إلى وسيلة لإصلاح هذا العطب لأن وجود مثل هؤلاء الناس في هذه المراكز سوف لن ينتج تنمية ولا نهوضا ولن نجني منه سوى مزيد من التخلف والانتكاسات، إنه مجرد إهدار لهذه الموارد التي لو وجدت من أجاد توظيفها واستخدامها وتسخيرها للبناء لجعل من الوطن العربي شيئا آخر في ميادين الصناعة والإنتاج.

إن هذه الأمم التي صنعت تقدمها وحضارتها وصارت مراكز اشعاع علمي إنما صنعت ذلك بالاعتماد على الكفاءات والخبرات التي توليها المسئوليات والإدارات وتتيح لها مناخاً للعمل والإنتاج

والابداع، وليس غريباً أن نجد دولة مثل بريطانيا تضطر أحيانا للاستعانة بخبرة إدارية تشتريها بملايين الجنيهات وتوليها إحدى المؤسسات كما حدث منذ سنوات مضت مع رجل اسمه " ماكروجوري " استعارته بريطانيا من إحدى الشركات الأمريكية ليدير لها إحدى الصناعات حيث آثار المبلغ الكبير الذي يصل إلى الملايين نقاشا في البرلمان والرأي العام ولا أعتقد أن الحكومة البريطانية كانت من الغباء حتى تأتي بإداري يدير لها إحدى مؤسساتها وتدفع له هذا العدد الكبير من الملايين إن لم تكن تعلم أهمية الإدارة التي يجب أن يتولى مسئوليتها أكفأ الناس.

لقد صارت مسألة استقطاب الكفاءات وسرقة المواهب إحدى أكثر ميادين الصراع الدولي شراسة وعنفا، وهي معركة تدخلها الدول الصناعية الكبيرة مسلحة بكل إمكانيات الإغراء لاقتناص المواهب

الواعدة من أبناء العالم الثالث، ولعل العالم العربي أحد أكثر مناطق العالم تضرراً من هذه السياسات ولكنه للأسف الشديد لا يدرك حجم وخطورة هذه القضية، وإذا كان نزوح المواهب إلى البلاد الأخرى لم يعد يثير حفيظة أحد في عالمنا العربي فهل نسكت أيضاً على المواهب والكفاءات التي بين أيدينا فنواصل إهمالها وتغيب العناصر التي جاءت بها المحاباة والمحسوبية والصدفة العشواء عليها.

إن قضية كهذه تبقى أكثر القضايا خطورة وأهمية، ومهما أعدنا حولها القول فسوف نحتاج إلى مزيد من التنبيه والتأكيد ودق النواقيس والأجراس حتى نستيقظ من نومنا ونعود إلى وعينا ونتذكر أن هناك فرقاً كبيراً بين البشر والعصافير.

تتخذ سمة رجل يحكم نصف العالم وتخاطب سحابة هائمة قائلاً :

ـ أمطري حيث شئت فإن خراجك لي !

كم هي مبهرة وقوية هذه الجملة، وهأنت الآن ترفع رأسك إلى السماء وتملأ رئتيك بالهواء وتقولها فتحس بالزهو والشموخ والكبرياء تحس أن مشاعرك وانفعالاتك وأفكارك وأحلامك التي ضاقت بها الأرض تجد الآن مجالاً رحبا في ربوع هذه السماء، إن بخارا كثيفا قد غادر صدرك الآن وانضم إلى تلك السحابة يزيدها ثقة وكثافة، علاقة حميمة تنشا بينك وبينها فتفضي إليها بكل الرغبات المحبطة والأمنيات التي لا تجد سبيلاً للتحقيق.

ـ أمطري حيث شئت فإن خراجك لي !

تعرف أنك تقولها عابثاً لاهيا باحثا عن سماء لأحلامك، وليس كما كان يخاطبها هارون الرشيد

وهو يمد سلطان دولته العربية بين مشرق الشمس ومغربها ذلك زمان ولى وانقضى وأنت لست هارون الرشيد وإنما مواطن بسيط يقف وسط رصيف العزلة والفراغ. ودولتك العربية ـ حتى وأنت تقولها من موقع المواطن الذي لا يملك نفوذاً ولا سلطانا ولا ينتظر جباية أو خراجا ـ لم تعد دولة واحدة كما كانت في تلك الأزمنة المجيدة الغابرة وإنما هي دول شتي.. نتف من الأرض التي تفصل بينها الحدود والبوابات والعسس. ولكنها لحظة للفرح واللعب وليست لحظة لتذكر المواجع والآلام تريد أن تستمتع قليلاً بأحلام اليقظة وأساطير النهار وتنفذ عبر بوابة الوهم من ضيق وأسر هذه الأسقف والجدران والأرض المحروقة تحت قدميك تريد أن تنسى للحظات قصيرة صورتك في المرايا المهشمة التي مسخت ملامحك وشوهت هويتك وتنسى صوتك المشنوق بحبال الإذاعات وإذا كانوا قد بسطوا نفوذهم

على مقدرات يومك وغدك وحاصروك بالقرارات والقوانين وناقلات الصوت ومنصات الخطابة ونشرات الأخبار فقد بقي لك الحلم فضاء فسيحا تهرب إليه وتقيم فوقه حياة جديدة لا تطالها الأيدي التي سرقت صوتك وصادرت كل الأوراق التي تحمل رسمك وأحرقت كل الوثائق التي تدل على نسبك.

لقد استيقظت الآن كل المواجع القديمة وغابت لهجة المكابرة والتفاخر

ـ أمطري حيث شئت

إنك تقولها الآن بصوت واهن ضعيف مخنوق بالبكاء والعبرات فأنت تعرف أن هذه الجملة التي تنتمي إلى تراثك وتترجم مشاعر أهلك لم تكن وهما أو كذبا وإنما كانت واقعاً وحقيقة ومجدا، إذ مهما سافرت هذه السحابة فإنه لا نفاذ لها من سلطان تلك الدولة العربية فكل أرض تستقبل غيثها إنما هي

أرض تنتمي إلى تلك البلاد التي كانت ذات يوم بلادك. تحس بالقهر والمذلة مرة أخرى فقد جاءت هذه المقارنة الأليمة بين ماضيك وحاضرك تفسد عليك أوهامك وأحلامك وتعيدك من جديد إلى الأرض المحروقة وشظايا الزجاج المهشم والوطن الذي تحول إلى رقعة شطرنج مملوءة بالمربعات والحراسات، هذا الوطن الذي لم يعد يتسع لجملة باهرة الجمال مثل هذه الجملة. ولم يعد بإمكان أحد من ابنائه أن يرفع رأسه شامخاً ويخاطب السحب قائلاً :

ـ أمطري حيث شئت فإن خراجك في !

- ٢٥ -

يستنكر بعض الناس أن يرى مظاهر الاحتفال بالعام الميلادي تغزو بلادنا العربية الإسلامية، ويرى في ذلك وجها من أوجه الاستلاب والتبعية ومماراة الآخرين في أعيادهم والتشبه بهم من موقع الضعف

والتقليد الأعمى. فنحن لدينا أعيادنا ومناسباتنا التي نحتفل بها ونتبادل خلالها الهدايا والزيارات ونأخذ الإجازات والعطلات فما حاجتنا لأن نقتبس أعياد الآخرين ونصنع منها عيداً لأنفسنا؟

ولكن التقويم الشمسي الذي يحتفل الناس بعامه الجديد دخل حياتنا وصار أداة لتسجيل تواريخنا وأحداثنا، نكتبه في دفاترنا ومراسلاتنا ونحدد به مواعيدنا ونرسم به المخططات لحياتنا الخاصة والعامة نؤرخ به لأعمارنا كما نؤرخ به لميلاد أطفالنا ونحمله مرسوما في بطاقات الهوية وجوازات السفر ووثائق الرحيل والإقامة حتى دخل في نسيج حياتنا وصار يعني ذات الاشياء التي عناها لغيرنا، ولذلك فإن الانسان قد يستنكر بعض المظاهر التي ترافق هذا العيد والتي تبقي غريبة على تقاليدنا وشريعتنا.

إنني من وجهة نظر شخصية أراه شيئاً ايجابياً أن يصبح هذا الاحتفال مناسبة للناس تتحقق من خلاله فرص المشاركة وتعزيز الروابط التي تجمع بين بني الإنسان شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً على اختلاف الأعراق والأجناس والعقائد والديانات جميعنا نلتقي حول الاحتفال بمناسبة واحدة هي إطلالة عام جديد على الدنيا ونرسل نشيداً واحداً يحمل الأمل والشوق لعالم تغمره المسرة ويسود أرضه السلام.

وإذا كانت هذه المناسبة للفرح والاحتفال والارتفاع فوق عوامل التفرقة والتمزق فإنه مناسبة أيضاً لتذكير الناس بتلك السحابة السوداء التي تظلل الأرض التي شهدت مولد السيد المسيح عليه السلام لقد مضت احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم دون احتفال. مضت هذه السنة يجللها الحداد على أرواح الشهداء الذين سقطوا على أيدي جلاوزة العسف الصهيوني وهم يسقطون كل يوم لا لشيء إلا لأنهم

طالبوا بحقهم في الحياة أحراراً فوق أرضهم وتحت سمائهم.

ليكن هذا اليوم مناسبة للبشرية، من حق أبناء تلك المدينة التي يجللها الحداد أن يحتفلوا معنا بهذا العيد أن لهم حصة فيها مثل أي إنسان آخر إن لم تكن أكثر تلبية باعتبارهم مواطني ذلك النبي الذي توافق ميلاده مع هذه الأيام، ولذلك فإن من حقهم علينا ومن حقهم على هذا العالم الذي يقيم الاحتفالات والمهرجانات ويدق النواقيس في الكنائس تمجيداً للسيد المسيح وأمه مريم العذراء أن ينصت قليلاً إلى هدير الدم الذي يخضب شوارع تلك الربوع التي شهدت ميلاد المسيح ينصت قليلاً لنداء الأطفال والأمهات والشيوخ الذين يقدمون حياتهم قربانا على مذبح الحرية والعدالة والكرامة فلا يتركهم يخوضون المعركة بمفردهم وإنما يقف بجوارهم وقفة تتناسب

مع القيم التي يحملها هذا اليوم ليكون بحق وصدق مناسبة لكل الناس.

- ٢٦ -

استمعت إلى مسئول عربي كبير يقول إن أكثر ما صار ينفر منه هم محترفو الهتافات الذين لا يملكون رأيا ولا فكراً، لقد صار أصحاب الكلمات الكبيرة الذين يسرفون في المديح والثناء يثيرون غيظه بل شكه وريبته فهم لا يجيدون شيئا سوى كلمات الإنشاء التي لا تخدم هدفا ولا تضيء طريقاً.

لقد أكبرت في هذا المسئول إدراكه لخطورة هؤلاء الناس الذين لا يعرفون من أمور الدنيا سوى هذه الكلمات المتملقة المداهنة التي يستخدمونها كوسيلة يحوزون بها الرضا ويتخذونها طريقاً سهلاً ويسيراً لتحقيق أغراضهم ومنافعهم.

إنهم غالبا ما يصنعون حاجزاً بين المسئول ونبض الشارع ومطالب الناس ويحولون بينه وبين رؤية الحقيقة ويمنعونه من أن يستمع إلى الأصوات الصادقة التي تحمل رأيا وفكراً يخدم الوطن ويقدم نفعاً للمسئول ذاته.

وأن يعي المسئول هذه الحقيقة معناه أن باستطاعته أن يتغلب على هذا الضعف الإنساني الذي يجعلنا نميل دائماً لمن يمدحنا ويقول لنا كلاماً جميلاً يبهجنا ونبتعد شيئاً فشيئاً عن أولئك الذين ما إن نلتقي بهم حتى نجد على ألسنتهم نقداً ونقاشاً يصيبنا بالضيق والتعب والضجر.

لأن المشكلة ليست دائما مشكلة هؤلاء المداحين المتملقين المنافقين الذين يحملون طبولهم ومزاميرهم ومباخرهم ويقفون على أبواب المسئولين الكبار يبحثون عن فرصة لعزف المزامير وضرب الطبول وحرق الأبخرة، فهؤلاء لا يخلو منهم مكان

أو زمان وهم دائما بانتظار إشارة من أي مسئول يريد أن يستمع إلى وصلة من الطرب والإنشاد والمديح والتمجيد، ويبيعونه وهما وكذبا ومجدا زائفا ويشترون بذلك المناصب والمكاسب، ولكن المشكلة تبقى دائما مشكلة المسئولين القياديين أنفسهم. هم الذين باستطاعتهم أن يرفضوا هذه المقايضة المهينة لأنفسهم وأوطانهم وهم الذين بإمكانهم أن يطردوا حاملي المباخر ومحترفي التزمير والتطبيل وباعة الوهم والضلال والأكاذيب. إنهم عندما يشترون هذه الأوهام إنما يدفعون مقابل ذلك ثمناً فادحاً إنهم يدفعون الثمن من عزلتهم عن أبناء شعبهم ومن سخط الناس عليهم ومن فرص التقدم والبناء التي تضيع على أوطانهم. وغالبا ما يكون الحصاد ندما وأسفا حين لا ينفع الندم أو الأسف.

وتاريخ الأوطان والشعوب والحكومات مليء بالدروس والتجارب التي تثبت صدق هذا القول

ولذلك فإن مفتاح المشكلة يبقى بأيدي هؤلاء المسئولين وقدرتهم على احتمال الصوت الصادق الذي لا يبيعهم وهما وإنما يقدم لهم الحقيقة التي قد تكون قاسية وجارحة في بعض الأحيان.

ولعل هناك من يقول إن مثل هذا الكلام قد انتهى زمانه، فلم تعد المسألة مسألة أشخاص يتولون المسئوليات، وإنما مسألة أنظمة وسياسات ولكن المسئول سواء جاء محمولاً على أعناق الجماهير أو أعناق البنادق سيظل متأثراً بالمحيط الذي حوله والرجال الذين يطمئن إلى مشورتهم، ولقد شاهدنا في أكثر بلاد الدنيا ديمقراطية رجالا على قمة السلطة يرمون ببلادهم إلى المهالك وآخرين ينتشلون بلادهم من مثل هذه المهالك فثمة هامش لأي مسئول قيادي في الدنيا مهما كثرت من حوله المؤسسات التي تراقب وتحاسب يتأثر بالمحيط الصغير الذي حوله تراقب وتحاسب، وليس غريباً بعد ذلك أن نرى امرأة

رئيس أكبر دولة في الدنيا هي نانسي ريجان تستعين بالمنجمين لتقديم المشورة لزوجها برغم كل المؤسسات والمجالس ومراكز البحث العلمي.

إن المسئول الذي يعي خطورة جوقة المداحين ومحترفي الهتاف يضع قدمه على بداية الطريق الصحيح.

وعلى عادة هؤلاء المتخصصين والخبراء الذين يبدءون بمناقشة البديهيات ويضعون كلمة " لماذا " أمام كل جملة تتحدث عن الوحدة العربية أو التضامن العربي سواء في مشرق الوطن أو مغربه. وجدت نفسي أطرح سؤالاً استفزازياً أواجه به استفزازهم وهو لماذا الوحدة أصلاً لا وحدة البلدان المغربية فقط وإنما وحدة الوطن العربي بأجمعه.

لماذا هذه الوحدة؟

وما الذي يدعونا إلى إثارتها أمس واليوم وغداً أو يطالبنا بالسعي لتحقيقها جيلاً وراء جيل؟

هو سؤال أردت أن أطرحه من موقع يساعدني على الذهاب بهذا الاستفزاز إلى حدوده القصوى أطرحه من موقع مواطن ينتمي إلى قطر عربي لا يعاني ضيقاً اقتصاديا وإنما وفرة وغزارة في موارده وإمكانياته الاقتصادية. ولا يعاني ازدحاما سكانيا بل يسعى إلى استجلاب الأيدي الأجنبية متى شاء وأراد. ليست من مشاكله البطالة أو المديونية للمصارف العالمية ويصل معدل الدخل السنوي للفرد إلى أكثر من عشرين وثلاثين ضعفاً لدى غيره في أوطان عربية أخرى وهو أيضاً لا يعاني من أية ازدواجية في الدين أو العقيدة أو المذاهب والسلالات. لماذا إذا يسعى هذا المواطن الذي تحرر من كل هذه الأزمات والمشاكل إلى الاتحاد مع بلدان أخرى فقيرة كانت أو غنية؟ وما هي المصلحة التي سيجنيها من

وراء هذا الاتحاد أو هذه الوحدة؟ وبعيداً عن أي كلام عاطفي انفعالي عن علاقة القدر والمصير التي تربط بين سكان الوطن العربي أو عن عوامل الوحدة حضارة وتاريخا ولغة وثقافة وتراثا ما هي المصلحة المعيشية التي تدفع المواطن العربي إلى أن يطالب بإلحاح وإصرار أن يرى علما واحداً يرفرف فوق كل مناطق الوطن العربي؟ لا بد أن نجد تعليلاً لهذا لهذه المعارك التي خاضها، ومنذ أن تحرر من ربقة المستعمر الأجنبي من أجل قضايا أمته من عام ١٩٤٨ عندما سار يشعل الحرائق في أملاك المستوطنين الأجانب الذين أعلنوا تأييدهم للمشروع الصهيوني ويتطوع مع أفواج من أبناء وطنه في حرب فلسطين إلى الانتفاضات التي قامت من أجل الثورة الجزائرية إلى غير ذلك من أحداث وحروب وصراعات مع العدو الصهيوني، حيث نجد هذا

المواطن ينتفض ويثور ويبذل الدم والمال من أجل هذه القضايا.

فهل كان ذلك مجرد استجابة لارتباط وجداني أو عاطفة دينية؟ إنه حتى وإن ثار من أجل هذه الارتباطات والعواطف فهو يدرك بالفطرة والسليقة أن هناك مصيراً مشتركاً يجمعه بأهله في تلك المناطق البعيدة التي ثار من أجلها، وأن الأرض إذا اهتزت في جزء من الوطن فسوف تهتز تحت قدميه أيضاً، وأن هناك فوق كل الاعتبارات الوطنية والقومية والدينية اعتباراً آخر يتصل بالمصلحة والمعيشة والأمن والرخاء الذي يصير مهدداً كلما نال الأذى جزءا من الوطن العربي.

وما الحديث عن التفاوت في مستويات الدخل إلا حديث أرقام جافة لا يعكس حقيقة الأوضاع التي يعيشها هذا المواطن، ومهما كان القطر الذي ينتمي إليه غنياً بموارده الاقتصادية وقويا بإمكانياته المادية

فهو ضعيف وفقير بسبب وجوده منفرداً ومنفصلاً عن كيانه الأكبر. والطبيعي أن أعباء الدولة القطرية التي تطالبه بأن ينشئ لهذه الدولة الصغيرة قوة عسكرية تحمي حدودها وعلاقات دولية تضمن لها الأمن والسلام تجعل هذه المعدلات الكبيرة في الداخل معدلات صغيرة نتيجة الإنفاق بل أن وجودنا منفردين متفرقين هو الذي ساعد على إشعال كل هذه الحروب الصغيرة والكبيرة التي لا تنطفئ إلا لتشتعل مرة أخرى على أطراف وحدود الوطن العربي مشرقاً ومغرباً فتحرق مواردنا وتستنزف إمكانياتنا وتجعلنا مهددين في أمننا وسلامنا.

ولذلك فإن المواطن العربي بفطرته السليمة يسخر من هذه الأقوال التي تستنكر عليه أن يحلم بيوم تتحقق فيه دولته الواحدة ليعود هذا الوطن الكبير كبيراً وشامخاً كما كان في سالف الأزمنة والعصور.

يدهشني هذا البرود العلمي الذي يناقش به بعض الخبراء والمتخصصين أكثر القضايا إثارة للحماس والانفعال وأقربها للعاطفة والوجدان فهو أمر يحتاج إلى أن نضع مساحة بيننا وبين الاشياء التي نناقشها مهما كان انفعالنا بها كبيراً، وهي ميزة عظيمة لا يقدر عليها أمثالي من المشتغلين بالكتابة القصصية والإبداعية التي تحتاج لأن ندخلها بكل ما نملك من عاطفة وإيمان ووجدان.

ولقد حضرت إحدى جلسات الندوة التي أقامها في تونس منتدى الفكر العربي حول أفاق العمل الوحدوي بين بلدان المغرب العربي. واستمعت في تلك الجلسة إلى أحد المشاركين يرفض الانتقال إلى الحديث إلى أي موضوع من مواضيع الندوة قبل أن يعرف بالتحديد ما هو المقصود بالمغرب العربي فهو رجل لا يؤمن بأية مسلمات ويريد تقليب كل الأحجار

بحثاً عن منطلقات صحيحة للنقاش ولا أدري لماذا وجدت نفسي زاهداً في الاستماع إلى مزيد من النقاش.

أخذت هذا السؤال معي وخرجت إلى الشارع أحاول أن أبحث له عن تفسير وتبرير لقد قرأنا وسمعنا منذ أن وعينا تعريفات كثيرة للمغرب العربي بعضها جاء تبسيطيا يمكن أن تقوله لك أية امرأة مسنة من عجائز المنطقة فهو يبدأ أو ينتهي حيث يبدأ وينتهي طبق " الكسكسي " الذي يتناوله سكان المغرب العربي وستجد شيخاً آخر يربطه برداء شعبي تقليدي يرتديه الناس في هذا البلاد هو " البرنس "، وبعض البسطاء ممن يعشقون الغناء في الأعراس يربطونه بإحدى أغاني المألوف والموشحات التي امتزجت بغناء أهل المنطقة والتي يزف بها العرسان ليلة عرسهم أي أن هناك مجموعة من العادت والتقاليد التي تتصل بالطعام واللباس

والغناء وتصنع تراثا مشتركا لأهل هذه المنطقة، ولو سأل هذا الخبير أمه أو جدته لوجد عندها الإجابة قبل أن يأتي إلى حضور المؤتمر، ولكنني سأترك جانبا أقوال الأمهات والجدات وسأحاول أن أكون معاصراً وعلمانياً مثل هذا الخبير فأطرح أمامي خارطة لهذا المنطقة وصولاً إلى تحديد علمي لها فهي منطقة لا يحدها غربا سوى المحيط الأطلسي، وإذا رأى هذا الخبير أن في الأمر ما يدعو إلى الغموض والإبهام وأراد أن يضم المحيط إلى المغرب العربي ويسميه المحيط العربي فلا حرج عليه ولا عتاب، ولا يحده من ناحية الشمال سوى البحر الأبيض المتوسط ومن أراد أن يتساءل عن هوية هذا البحر فليقتطع منه جزءا محاديا لبلاد المغرب العربي ويسميه البحر الأبيض المغربي إذا شاء وأحب وهناك جنوبا إفريقيا السوداء التي تتحدث لغة أخرى غير اللغة العربية ولا تنتمي إلى جامعة الدول العربية ولها ديانات وثقافات

مختلفة وتاريخ وتراث يختلف عن تاريخ وتراث البلاد العربية، وسوف يجدها مهمة صعبة لو اراد هذا الخبير إقناع تلك البلدان بأنها تنتمي هي الأخرى إلى بلاد المغرب العربي هذه هي حدود المنطقة كما نشاهدها على الخارطة غربا وشمالاً وجنوبا فلا مجال هنا لأي إبهام أو التباس لم يبق إذن سوى البلاد التي تحد المغرب العربي شرقاً وهي جمهورية مصر العربية وطالما أن وحدة بلاد المغرب العربي هي إحدى الخطوات التي تبذلها الدول العربية باتجاه وحدة أكبر تضم الوطن العربي كله فسيكون موضوع ترحيب أن نرى مصر تدخل هذه الوحدة حتى لو لم تحسب نفسها في يوم من الأيام ضمن بلاد المغرب العربي ومنذ ما قبل التاريخ كان المؤرخون وعلى رأسهم هيرودوت يميزون مصر عن البلاد التي تقع غربها ويعتبرون بلاد المغرب العربي بلاداً واحدة يسمونها ليبيا أحيانا ويسمونها إفريقيا أحيانا أخرى.

زد على ذلك أن هذه البلاد عاشت تاريخاً مشتركاً منذ ما قبل الفتح العربي يجعل لها سمات مشتركة ويؤهلها لأن تكون وطنا واحداً فلا أدري من أين جاء اللبس والإبهام الذي يجعلنا نطرح في منتدياتنا مثل هذه الأسئلة وكأننا نعيد سيرة علماء بيزنطا لأن هناك الآن عملا عربيا مشتركا بين هذه البلدان الخمسة يقتضي من مفكرينا وعلمائنا بذل جهد حقيقي لتعزيز هذه الجهود التي يقوم بها السياسيون حتى لو لم يكن هناك مصطلحاً اسمه المغرب العربي فإنه يكفي أن تلتقي مجموعة من البلاد العربية المتجاورة وتنشئ فيما بينها صيغة للعمل العربي المشترك ليكون هذا مناسبة لتعزيز العمل الوحدوي ورفده بالآراء والأفكار التي تمنحه القوة والمناعة.

وإذا كانت هناك قضايا تحتمل هذه الحيادية وهذا البرود كما تحتمل النقاش الذي يريد مراجعة الأشياء منذ بدء الخليقة فإن ثمة قضايا أخرى أكثر

حيوية وإلحاحاً تطالبنا بأن نكون في مستوى اللحظة التاريخية التي تعيشها بلادنا وأن نرتفع إلى مستوى الأحداث الكبيرة التي تصل بمصائر شعوبنا إذا أردنا أن نكون أكثر نفعاً لاهلنا وأكثر وفاء لرسالة العلم التي نحملها.

- ٢٩ -

ذهب المريض إلى الطبيب النفسي يشكو حالة مرضية تعتريه، إن لديه شعوراً بأنه تحول إلى حبة شعير وأن الدجاج سوف يأكله بمجرد أن يراه وبعد جلسات علاج طويلة استخدم فيها الطبيب حبة من حبات الشعير وجعل يقارنها بالرجل اقتنع المريض بأنه ليس حبة شعير، وإنما هو إنسان له عقل وحواس وبناء يختلف عن حبة الشعير، وأن الدجاج لن يستطيع التقاط أو أكل إنسان مثله.

انتهي شعوره بالنقص وخرج من العيادة سعيداً لأنه استعاد إحساسه برجولته وما عاد يخشى على نفسه من الدجاج ولكنه لم يغب سوى لحظات قصيرة حتى عاد يطلب النجدة من الطبيب لأنه رأى دجاجة في الطريق صارخاً :

- الدجاج. الدجاج !

استقبله الطبيب متسائلاً باندهاش :

- ألم تقتنع بأنك إنسان؟

فأجاب المريض يائساً، حزينا :

- نعم يا سيدى الطبيب لقد اقتنعت بأنني إنسان، ولكن من يقنع الدجاج؟

نعم، من يقنع الدجاج، هذه هي مشكلتنا في عالمنا العربي أننا نعرف قيمتنا كشعوب وأفراد ننتمي إلى هذا العصر الذي يحفل بأفكار العدالة والحرية والمساواة بين البشر وكرامة الإنسان ولكن من يقنع الدجاج الذي يريد التقاطنا بمناقيره، إن الإنسان

العربي حقا إنسان وليس مجرد حبة من الشعير مرمية فوق الأرض.

من يقنع دجاج المكتبية والبيروقراطية والأجهزة العنكبوتية المتخلفة من عهود الأتراك والمماليك والتتار أننا لسنا حبات شعير وإنما بشر لديهم حقوق البشر وأحاسيس البشر فيعاملوننا بمنطق آخر غير منطق الدجاج مع الشعير.

من يقنع عناصر الفساد وتجار الدجاج الفاسد والبضائع المغشوشة الذين يملئون أسواقنا بدجاجهم ويتاجرون بأقواتنا ويستهترون بثروات أوطاننا ويغرسون مناقيرهم في شعيرنا أننا لسنا شعيراً وسوف لن نستسلم لهم دائما كما يستسلم الشعير للدجاج؟ من يقنع دجاج الجهل الذي ينكر كل قيمة للعقل والفكر ويحجر على حرية الرأي والتعبير ويحاصر إنتاج المبدعين والمفكرين ويعاملهم كحبات الشعير أنه لا سبيل لتحقيق أي تقدم ونماء إلا إذا

اعترفنا بإنجازات الفكر وعاملنا أصحابه كشركاء في الوطن واستفدنا من عطائهم الذي يضيئون به حقول الجهل والظلام.

من يقنع دجاج التخلف أنه لا مجال للبقاء والوجود في عالم ينتقل من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين إلا إذا تحول المواطن من شعير إلى بشر يملكون مقدراتهم ويشاركون في صنع مصيرهم ويدركون أن أمهاتهم قد ولدتهم أحراراً فلا حق لإنسان في استعبادهم أو استغلالهم أو معاملتهم معاملة الأرقاء والعبيد، فينتجون ويبدعون ويحققون للوطن ما يريده من تقدم وبناء.

من يقنع دجاج التعصب والطائفية والمذهبية أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا ملك حقه في حرية الكلام والتفكير والتعبير وآمن بالحوار والمجادلة بالكلمة الطيبة التي هي أحسن من أي كلام بدلاً من منطق الدجاج يعاملون به كل من يخالفهم الرأي

فيحاولون التقاطه كأنه حبة شعير، هذا المنطق الذي ضرب بلدا مثل لبنان، واشعل حرباً كريهة مثل حرب الخليج.

وأخيراً من يقنع هذه الدجاجة الأمريكية الكبيرة التي تقبع في حجر المرابي الصهيوني أن الشعب العربي ليس حفنة من الشعير ملقاة فوق الأرض يسهل عليها التقاطها وأكلها وابتلاعها متى شاءت وكيفما شاءت وأن بيضتها التي أفقست دجاجة سوداء صغيرة في فلسطين المحتلة وظنت أن الشعب الفلسطيني هو الآخر مجموعة من حبات الشعير صارت تدرك الآن أن هذا الشعير تحول إلى جمر يحرق ريشها ويفتك بها وحجارة تدميها وتطاردها حتى تخرج مطرودة من أرضه...

الدجاج. الدجاج.

من ترى يستطيع أن يقنع الدجاج؟

لم يعد صاحب المنصب الكبير الذي يترك منصبه هذه الأيام بحاجة إلى أن يجلس في بيته حزينا مهموما يجتر ذكريات أمجاده الماضية كما كان الحال في أزمنة مضت، إن بإمكانه الآن أن يعيش مرة أخرى في قلب الأحداث ويحقق كسبا وفيراً من وظيفته السابقة بأضعاف ما كان يحققه منها أثناء توليه لها.

ولن يحتاج هذه الأيام إلى أن يجتر ذكريات أمجاده الماضية مع نفسه وإنما يشركنا نحن أيضاً في اجترارها معه ويستمد من ذلك متعة جديدة بأكثر من متعة الوظيفة ذاتها فما عليه الآن إلا أن يكتري شابا حديث التخرج من إحدى كليات اللغة العربية كثير النشاط وصاحب قدرة على الإنشاء والتعبير ويعهد إليه بكتابة مذكراته وسوف لن يقتضيه ذلك جهداً كبيراً فبإمكان هذا الشاب النشيط السعيد باقترابه من

عوالم المسئول السابق أن يرجع إلى الأرشيف ليعيد نقل الأنباء التي نشرتها الصحف عن أنشطة هذا المسئول منذ توليه ذلك المنصب والأحداث التي شارك فيها ثم يترك بعض الفراغات للسيد المسئول السابق لملأها ببعض الذكريات والانطباعات دون أن ينسى أن يضيف لنفسه بعض البطولات الصغيرة ويحذف بعض المشاهد المشينة التي قد تزعج القارئ ليصبح هذا الشخص مرة أخرى يتصدر الأنباء وتتسابق الصحف على نشر تصاويره التي سبق أن نشرتها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً مضت وهو بصحبة المسئولين الآخرين مرفقة بنتف من ذكرياته التي نسميها أسراراً حجبتها الأجهزة عن أعين القراء وكأن هذا المسئول لم يكن واحداً من أعضاء تلك الأجهزة وتتسابق دور النشر على طبع الكتاب وإعادة طبعه تلبية لنداء هذا السوق الذي يفتح فكيه بشراهة ونهم متلقفا ما يقوله أي مسئول أحيل إلى التقاعد بعد

أن أعيته الحيلة في معرفة ما يدور في كواليس السياسة هذه الأيام وصارت تجارة كتب المذكرات تجارة جديدة رائجة ورابحة فاقت كل تجارة أخرى وتوارت كتب العلم والمعرفة والإبداع وتوارى أصحاب هذه الكتب يفسحون الطريق لهؤلاء السادة المسئولين السابقين من وزراء وإداريين وضباط مخابرات. وطالما نجحوا في تهميش المفكرين والمبدعين عند توليهم المسئولية فلا بأس من مواصلة هذا التقليد الجميل، وتهميشهم مرة أخرى حتى وهم ينتقلون إلى عالم المتقاعدين.

وهكذا يتحولون مرة أخرى إلى نجوم في سمائنا ويفرضون علينا وجودهم مرة أخرى عن طريق سرد هذه الوقائع والأحداث التي لا يبقى من قيمتها التاريخية إلا النزر اليسير لأنها جزء من الاخبار التي كان يجب أن نعرفها عند وقوعها لا بعد أن أصبحت أخباراً بائتة لا تعني إلا بعض

المتخصصين في التاريخ ممن يمكن أن يأخذوا منها تفصيلة صغيرة لاستيفاء حدث من الأحداث. إنها ليست سيرة ذاتية لشخصية فكرية أو أدبية أو زعامة وطنية تلقي الأضواء على جوانب من إنتاج ومواقف هذه الشخصية، إنها صراعات صغيرة على السلطة وأحداث انتهت قيمتها بانتهاء وقتها وزمانها فنقرأها وكأننا نقرأ أخباراً سياسية في جريدة قديمة صدرت قبل ثلاثين أو اربعين عاماً.

وإذا كان الأمر قد بدا في الغرب تقليعة من تقاليعه الكثيرة. وبابا جديداً للرزق. واستثماراً لما تبقي من بريق السلطة والشهرة لدى الساسة السابقين وإرضاء لفضول القراء الذين يتشوقون لمعرفة الدسائس والمؤامرات والصراعات التي تدور خلف الكواليس فإنه ما أن وصل هذا التقليد إلى بلادنا حتى وجد سوقاً أكثر فهما لمعرفة سيرة الحقائق المخبأة في جيوب المسئولين، لأن السياسة في بلاد العالم الثالث

لا تزال أسرارا مغلقة علينا ممنوعة على الدهماء من أمثالنا، والأحداث الكبيرة نسمعها سطوراً في الأخبار دون أن نعرف دوافعها أو خلفياتها أو نشارك في صناعها وإقرارها ولذلك فإنه لم يبق لنا من سبيل إلا انتظار هؤلاء السادة المتقاعدين ليقولوا لنا بعد ثلاثين أو أربعين عاماً ما يدور الآن فوق رؤوسنا.

ومنعا من أن يصبح هذا السوق مجال استغلال وابتزاز لجهلنا بأسرار السياسة العربية فإنني أريد أن أقترح على حكومات العالم العربي أن تنشئ تقليدا جديداً مثل تقاليد البلاد الأخرى وهو أن تتيح لنا الاطلاع على الملفات التي مضى عليها الآن ثلاثون عاما لكي نقرأها بأنفسنا دون حاجة لهؤلاء الوسطاء الذين يكتبون عن أحداث لا نعرف صحيحها من باطلها، ولا نعرف أين انتهى الواقع وبدأ الخيال أو ماذا نرفض أو ناخذ منها وبهذا يضيق الباب فلا يدخل منه إلا من أضاف شيئاً حقيقياً إلى التاريخ

وأسهم في تصحيح ما يشوبه من أخطاء وأباطيل، بدل أن يأتي من لا يضيف إليه إلا مزيداً من الأخطاء ومزيداً من الأباطيل.

- ٣١ -

ويظل الوطن يلوح مثل شباك مضيء بآخر الطريق.

تفرقت بك السبل، وتباعدت بينك وبينه المسافات، وتكاثرت السنوات التي تفصلك عن ذلك الوطن الذي تركته هارباً من زوابع سياسية سوداء هبت فوق أرضه أو جريا وراء طموح علمي لم تجد له مجالاً هناك أو بحثاً عن فرصة للرزق عندما ضاقت بك سبل تحقيق الرزق في قريتك فهجرتها إلى بلاد أخرى وسافرت من جنوب الكرة الأرضية إلى شمالها تفصلك عن أرض المنشأ والميلاد بحار وجبال ولغات ولكن حبلاً سريا يظل يربطك بذلك

الوطن إلى آخر العمر وتعيش بأمل واحد هو أن ترجع ذات يوم إليه.

وبرغم أن الرزق صار جريا بين يديك واستطعت أن تستعير لسانا جديداً تتكلم به لغة وطن المهجر، وأصبح لك أهل وأصدقاء كبديل عن أهلك وأصدقائك الأولين برغم ذلك كله فإنك لا تتصور أن يكون هذا اللسان هو لسانك إلى الأبد. ولا أن تكون هذه الأرض هي أرض إقامتك الدائمة ومثوى عظامك عندما تنتهي رحلة العمر فأنت تعتبر هذا الاغتراب شيئاً مؤقتا وعابراً في حياتك إلى أن يأذن ا بانتهاء غربتك وعودتك إلى أرضك وأهلك وسمائك ولسانك وجذورك وتتساءل بينك وبين نفسك عن هذا السحر الذي يربطك بوطن خرجت منه مهاجرا تبحث في أرض ا عن أرض تؤويك حتى وجدت هذا المأوى وخرجت فقيراً فمنحك ا اليسر وضعيفا فمنحك ا القوة واستطعت برغم قسوة

الظروف وكثرة الزحام وشدة التنافس أن تثبت وجودك وجدارتك بالحياة في أرض الغربة وبلاد الآخرين فما الذي يجعلك تحمل هذا الحنين الموجع المؤلم الحارق لذلك الوطن الذي خرجت منه هارباً؟ لقد أبدل ا حالك بأفضل مما كنت عليه وجدت فرصة للعمل فنهلت منها وفرصة للرزق فضمنت لنفسك مستوى معيشياً كريماً ووجدت من حولك بيئة تحترم حرية الإنسان وكرامته وتتيح له فرصة التفكير والتعبير دون قيود فأمنت إليه، لماذا إذن يبقى عقلك مشدوداً وقلبك يتلظى حرقة وشوقاً ووجدانك ينضح امتلاء بالحنين إلى ذلك الجزء من الدنيا الذي تركته وراءك.

ما إن ترى سماء ملبدة بالغيوم حتى تقول إن السماء في بلادي أكثر جمالاً وإشراقاً والشمس أكثر دفئا وسطوعاً وما إن ترى ثلجاً أو عاصفة حتى تقول إن المناخ في بلادي أكثر اعتدالا وبهاء وأعظم

ملائمة لصحتي وطباعي، وما إن ترى شجرة سنديان تزهو بغزارة أغصانها وأوراقها حتى تقول إن أشجار النخيل في بلادي أكثر شموخاً وكبرياء، وما إن ترى بائعا يعاملك بحياء وتودد حتى تقول إن الناس في بلادي أكثر حنانا ورحمة ومودة. تفسد على نفسك فرصة الاستمتاع بما بين يديك من خير وبهاء لحساب فرحة مؤجلة فرحة قد لا تلتقى بها طوال حياتك تنظر بازدراء إلى مشاهد الطبيعة المبهجة بحجة أن ذلك كله لا معنى له لأن الاشياء تفقد طعمها ومذاقها في أرضا الآخرين ولا تكتسب هذا الطعم والمذاق والجمال إلا في وطنك الأصلي وتبقى طوال أيامك محكوما بتلك السنوات البعيدة من عمرك برغم أن المهجر لم يعد مهجراً، وإنما وطنا جديداً لك فيه كافة الحقوق وعليك كافة الواجبات.

وتسمع صوتا بداخلك يرتفع لتسفيه هذا المنطق قائلاً لك أن أرض ا لأهل ا وأنك طالما

وجدت رزقا وأهلا وحياة كريمة فهذه منذ اليوم أرضك وإذا شاءت المصادفة أن يكون مسقط رأسك في بلاد أخرى فليس معنى ذلك أن تجعل حياتك ارتهانا كاملاً لهذه المصادفة أو تجعل أيام عمرك محكومة بها، وإذا كان وطن المنشأ وطنا لم يكن لك يد في اختياره أو تحديده فأنت في هذا الوطن الجديد الذي سعيت للإقامة والحياة فيه إنما جئت باختيارك ورغبتك أنه وطن صنعته بإرادتك لا بإرادة الآخرين واخترته بنفسك ولم يختره لك أسلافك الموتى وأتاح لك من الخير ما لم يتحه لك ذلك الوطن القديم فهو إذن وطنك الحقيقي الذي لا وطن لديك سواه، إنه وطن الرغبة والاختيار والإرادة وليس وطن المصادفة والوراثة فلماذا تقضي حياتك متأزما حائراً بلا سبب أو معني، افتح ذراعيك للدنيا، واستقبل بصدرك ورئتيك ما ينعم به هذا الوطن من هواء الحرية وكرامة الإنسان واطرد من رأسك تلك الأفكار

العاطفية الانفعالية التي انتهي زمانها، وعش أيامك بمثل ما يليق بمواطن من أهل هذه البلاد أن يعيش.

تنصت قليلاً إلى هذا الصوت الداخلي الحكيم.

ولكنك ترفض الاقتناع بكلامه إنه كلام تقوله بعقلك الواعي ولكن شيئاً من ذلك الوطن الذي شهد أيامك الأولى تسرب إلى روحك وسرى في عروقك مسرى الدماء وما عاد بإمكانك أن تنفذ من سحره أو تتحرر من قبضته المؤلمة الموجعة الحارقة تنسى ما يقوله الصوت الداخلي وترسل البصر بعيداً يفتش في عوالم الحلم والذاكرة فلا تهنأ ولا ترتاح حتى يلوح اك ذلك الوطن القديم مثل شباك مضيء معلق بحافة الأفق هناك في آخر الطريق.

لا يفزعني السلوك المتدني إلا إذا أصبح ظاهرة عامة ومرضاً اجتماعياً ينتشر ويتفشى بين الناس كالأمراض المعدية.

قد نلتقي بين الناس الشرفاء بإنسان لا يتعامل إلا بالغش وآخر لا يحترم وعداً ولا موعداً، وثالث لا يعتمد على الجهد والعرق سبيلاً لتحصيل الرزق وإنما على التحايل والخداع ورابع لا يقيم وزنا للشرائع والمحرمات وقد يصيبنا الأذى ويلحق بنا الضرر عند التقائنا بواحد من هؤلاء الناس، ولكننا نقول إن الحياة تحتاج لكل تلك النماذج والأشكال كما تحتاج لهذا التفاوت في الطبائع والسلوك والأخلاقيات لكي تصنع عالما زاخراً بالتنوع وأسباب الصراع وعوامل الخير والشر، ولن يكون العالم عالما ولا البشر بشرا إذا لم نلتق بالضعف الإنساني متجسداً في هذه النماذج كدليل ا خلق البشر بطبيعة تختلف عن طبيعة الملائكة وخلق العالم بمواصفات تختلف عن النعيم

الذي ادخره لعباده الصالحين ولذلك فنحن نتعايش مع ما نراه من ضعف ونقبل بما نلتقي به من أوجه القصور الإنساني ولا نجد في ذلك شيئا يتنافى مع طبيعة الحياة وسنن الكون ونحاول محاربة الضعف في أنفسنا ونجتهد في وضع القوانين وإنشاء المؤسسات التي تحمي البشر من ضعفهم وتحارب نوازع الشر فيهم وتكثر دعاوى الخير والهداية من أجل أن يرجع الإنسان الضال عن ضلاله والخاطئ عن خطاياه وتنتصر عوامل الخير على عوامل الشر.

ولكن عندما يصبح هذا الضعف ظاهرة عامة تعبث بالمؤسسات والقوانين وتهدد البناء الاجتماعي بالانهيار وتنتشر هواءها الفاسد في كل مكان ويصبح التحايل والغش والخداع أسلوباً للتعامل بين الناس. ويلحق الفساد العمل العام والأجهزة التي تشرف على تسيير المجتمع فتصاب بأمراض الرشوة والمحسوبية والمحاربة، عندئذ يحق لنا أن نصاب بالفزع لأن

الأمر لم يعد سلوكاً استثنائيا لفرد من الأفراد أو مجموعة محدودة من الناس وإنما صار مرضا يهدد كل القيم والمبادئ والأسس التي تبني عليها المجتمعات.

وقبل أن يكون هذا الفزع من أجل قيم أخلاقية مثل الصدق والشرف والأمانة التي يهددها الضياع أو من أجل المجتمع الذي ينحل ويتفسخ وينخره الفساد أو من أجل الكائن الإنساني الذي خلقه ا ليكون خليفته في الأرض واعده لحمل أعظم الأمانات وجعله أرقى الكائنات في الوجود فأخل بهذه الأمانة واستجاب لأرخص الغرائز وأكثرها تدنيا وانحطاطاً قبل أن يكون من أجل ذلك فهل فزع على أنفسنا وخوف من أن يتسلل هذا الهواء الفاسد إلى صدورنا ويلوث نظرتنا إلى الحياة واسلوبنا في التفكير والتعامل فنصبح نحن أيضاً من ضحاياه، أن المتسخ لا يطيق أن يرى إنسانا نظيفاً والملوث بالفساد لا

تكتمل سعادته إلا إذا رأى الجميع يصبحون ملوثين مثله.

والمريض بهذه الأمراض لا يطيق أن يرى إنسان سليما.

ولذلك فهم يتفننون في نصب الشراك والفخاخ للاطاحة بهؤلاء الأبرياء ويتعاظم خوفنا من أن نفقد قدرتنا على المقاومة ونستجيب لهذه الضغوط والفخاخ والشراك التي تتربص بنا، وهذه الأصوات التي تطالبنا بأن ننسى مثالياتنا التي لن تجلب لنا إلا الخيبة وأن نفعل كما يفعل الآخرون نرتدي لباسهم ونأكل من صحافهم وندخل أسواقهم ونتعامل بعملتهم لكي نضمن لأنفسنا نجاحا مثل النجاح الذي حققوه.

وتتحول الأرض من حولنا إلى أرض موحلة تشبه السباخ نمشي فوقها بحذر واحتراس خوفا من أن تنزلق أقدامنا فنسقط ملوثين متسخين تلوثا واتساخاً لن تغسله مياه كل البحار.

ويزداد الفزع في قلوبنا كلما رأينا أناسا قريبين منا ويستحوذون على احترامنا وتقديرنا بسبب صدقهم ونزاهتهم وأمانتهم يسقطون هم أيضاً في هذه الشبكة العنكبوتية اللعينة التي يصنعها الفساد إذ إن الأمر لا يحتاج إلا إلى لحظة ضعف صغيرة لحظة لا تدوم سوى دقيقة واحدة أو جزء من الدقيقة ليجد الإنسان نفسه خلالها قد فرط في قيمة من القيم التي عاش طوال عمره حريصاً عليها متحصنا بها مستمداً منها الأمان والعافية النفسية ليصير عمره بعد ذلك ارتهانا لهذه اللحظة وتصبح حياته سجنا لها ولسوف يكتشف أن كل خسارة يمكن تعويضها إلا هذه الخسارة وكل شيء يمكن شراؤه إلا هذا الجزء الذي تهدم من نفسه، فهو لن يجد في أسواق العالم كله شفقة ضمير يصلح بها ضميره أو قطعة شرف يعيد بها الجزء المثلوم من شرفه والذي سيبقى معطوباً وناقصاً إلى الأبد.

إذا كان الآباء الذين يعيشون في المهجر قد جاءوا يحملون تكوينا مجبولا من طين وتراب الوطن ونسيجا مصنوعاً من ضوئه وظلاله وإرثا تربويا وثقافيا يشدهم إليه ويذكرهم به ويطالبهم بتقديم واجب الوفاء والولاء لمثله وقيمه واخلاقياته. فماذا بشأن الأبناء؟

هؤلاء الأبناء الذين ولدوا بوطن المهجر وذهبوا إلى مدارسه واستقبلوا الحياة فوق أرضه وتغذوا بضوئه وشمسه وهوائه فلم يعرفوا أهلاً إلا أهله ولم يعرفوا ثقافة إلا ثقافته ولا تاريخا إلا تاريخه ولم يروا سماء أو نجوماً أو شمساً أو قمراً إلا سماءه ونجومه وشموسه وأقماره هؤلاء الأبناء الذين تقطعت أسباب التواصل بينهم وبين الوطن الأصلي فلم يعرفوه إلا نتفا من ذكريات الآباء والأمهات أو بقايا

كلمات من اللغة التي يتكلمونها أو أخبار البلاد الأخرى ما الذي يبقى لدى هؤلاء الأبناء من وشائج وروابط تربطهم بوطن الأهل والأسلاف والجذور واضعين في الاعتبار أن الحديث هنا عن الهجرة من بلد عربي إلى بلد أجنبي يختلف عن الوطن الأصلي لغة وثقافة وتاريخا ومنهجاً في الحياة.

إن هذه بلا شك هي محنة أي أب وأم يطمحان إلى العودة بأولادهم إلى أرض الوطن وهي محنة تكبر وتنمو مع نمو الأبناء وتدرجهم من سن الطفولة إلى سن الصبا والشباب. فهذه الفتاة التي تربت في بيئة أخرى بمواصفاتها وشروطها التي تختلف كثيراً عن البيئة العربية هل يمكن فعلاً لمفاهيم الأب والأم أن تحجب عنها كل تأثير لهذه البيئة الأجنبية فتبقى وفية لتقاليد وعادات المجتمع الذي جاء منه أهلها؟ وهل يمكن لهذا الابن الذي وصل سن الشباب ونسي لسانه العربي أن يستعيد مرة أخرى هذا اللسان؟

ومن هنا تبدأ مشكلة هذه العائلة العربية الصغيرة التي جاءت من أجل قضاء فترة قصيرة في هذه البلاد لقد زالت الآن الأسباب التي دعتها إلى الهجرة ولكنها صارت الآن مشدودة بأوتار كبيرة إلى هذه الأرض وحلم العودة إلى الوطن الأصلي صار شيئاً فشيئا يتلاشى ويتبخر في الفضاء.

إنها عائلة مقسومة إلى نصفين : نصفها ينتمي إلى الوطن القديم ونصفها ينتمي إلى الوطن الجديد. نصفها ينتمي إلى لغة وثقافة وتربية وعادات وتقاليد ومخزون من الذكريات التي تتصل بالمجتمع القديم ونصفها الآخر ينتمي إلى لغة وثقافة وتربية وتقاليد وذكريات من صنع المجتمع الجديد ولا أدري كيف يستطيع الآباء والأمهات الذين وجدوا أنفسهم في هذا المأزق أن يصلوا إلى مصالحة بين أفكارهم وأساليبهم في السلوك والتربية والمعاملة وبين ما يتربى عليه أبناؤهم وبناتهم من سلوك وتربية ومعاملة وأساليب

ومناهج يفرضها الوجود في بيئة ومجتمع يختلفان اختلافاً كبيراً عن مجتمع الاباء والامهات.

لا شك أنهم حاولوا كثيراً تربية أولادهم وبناتهم على الأسس التربوية والأخلاقية لمجتمعهم ولا شك أن هؤلاء الأبناء قد تأثروا بذلك بعض الشيء ولكن مهما كان حجم ما تلقوه فإنه لن يكون بحجم ما تقدمه لهم البيئة الكبيرة التي حولها وما يغذيهم به الشارع والمدرسة والأصدقاء من مفاهيم وأفكار وسلوكيات.

ونجد أولياء أمور يتحملون عناء كبيراً في تربية أبنائهم ويعاملونهم بقسوة وصرامة من أجل الاحتفاظ بهم أوفياء للبيئة الأصلية وإبقائهم دائماً داخل الوعاء الشرقي الذي لا يسمح بالتكيف مع البيئة الجديدة ولكن هذا النوع من التربية قد يلحق تشويها بهؤلاء الأبناء لا يبرأون منه فليس هناك ضرر على نفسية الإنسان أكثر من أن يعيش منفصلاً انفصالاً

كاملاً عن البيئة التي حوله معزولاً عنها وهو مقيم بها ينتمي إلى تقاليد مجتمع لا يعرفه ولم يختبره أو يعايشه ويرفض تقاليد مجتمع يعيش فوق أرضه ويتعامل صباح مساء مع أهله وتكون النتيجة أن هذه التربية سوف تنتج بشراً لا ينفعون للحياة في هذا المجتمع أو أي مجتمع آخر بما في ذلك الوطن الأصلي.

إنها في الحقيقة محنة أباء وامهات وليست محنة هذا الجيل الجديدة من أولاد وبنات فهؤلاء سوف لن يجدوا صعوبة في تحقيق انتمائهم للوطن الجديد وانسجامهم مع معطيات الواقع والمجتمع الذي ولدوا وعاشوا وتربوا بين أهله.

ولقد رأى بعضنا مشهد ذلك الرجل الطاعن في السن الذي يعود إلى بلاده من أرض المهجر وما إن يهبط من الطائرة حتى ينحنى فوق الأرض يقبلها

ويلثم ترابها سعيداً بأن وطنه الأصلي سوف يضم عظامه عندما ترجع الروح إلى خالقها.

ولكن هذا الشيخ غالباً ما يكون قد ترك وراءه في أرض المهجر أبناء صاروا الآن ضباطاً في الجيش وأعضاء في المجالس البلدية وما عاد الوطن القديم يعني لهم شيئاً سوى بقايا ذكريات سمعوها من الآباء والأمهات.

-٣٤-

من الكلمات الأجنبية المضللة التي دخلت قاموسنا السياسي كلمة صارت مصطلحا كثير التداول هي " كاريزما " وهي كلمة يستعملها بعض الكتاب السياسيين لإضفاء صفات تسمو فوق صفات البشر العاديين على كل ما ينال إعجابهم من الشخصيات القيادية في العالم ولعل هذه الكلمة جاءت نتيجة اجتهاد بعض العلماء في فهم الصفات والمزايا التي

يتشارك فيها بعض القادة التاريخيين واستقرائها ومن ثم ابتكروا هذه الكلمة التي تعني فيها تعنيه أن للشخص القيادي إشعاعاً خاصاً يسحر به الجماهير فتنجذب إليه وتذعن لقيادته أقول إن ذلك الاجتهاد قد يكون صحيحاً وقد يكون لبعض القادة والزعماء هذه الصفات والمزايا غير المألوفة ولكن ما ليس صحيحاً أو مقبولاً هو الارتفاع بهذه الكلمة - المصطلح - إلى مرتبة القاعدة العالمية وإضفائها بعد ذلك على كل مغامر، لأن الأمر يصبح حينئذ نوعاً من الإرهاب الفكري الذي تمارسه فئة من المثقفين على بقية المواطنين وعملا من أعمال الابتزاز وتزوير إرادة الناس لقد صار كل من يفتح دكانة سياسية لحسابه أو لحساب الآخرين ويضع لافتة تحمل اسم الجهاد أو الكفاح ثم يشتري بعض البؤساء والمساكين يجعلهم حرساً وتابعين يصبح بهذا المعنى شخصا " كاريزماتيكيا " أوصلته ومواهبه القيادية وجاذبيته

الشخصية وإشعاع العبقرية في عينيه إلى هذا المنصب القيادي العظيم وكل من ترمي به المناورات الدولية وظروف الجهل والفقر والتخلف لقيادة إحدى القرى أو النجوع التي نسميها دولا وبلادانا يصبح هو الآخر صاحب " كاريزما " أهدته لنا الأقدار واختارته لنا السماء كي نسلم له قيادنا ونمنحه تفويضاً دائما بإدارة شئون حياتنا كيفما أراد واشتهى بل إن بعض المفكرين العرب الكبار انساقوا وراء هذه المقولة المضللة واعتبروا وجود الزعيم " الكاريزماتيكي " شرطاً اساسياً لتحقيق التقدم وبناء الوحدة وكان تهميش المواطن وإهماله وإزاحته من دائرة الفعل والنفوذ والقرار وتعطيل ملكاته وإلغاء دوره وارتهانه كاملاً لدى السادة أصحاب " الكاريزما " يبقى قدراً أبديا لا فكاك منه بالنسبة لهذا المواطن المسكين، ولا أدري كيف يستقيم هذا الكلام مع حديث هؤلاء المفكرين عن الديمقراطية وحرية التعبير واحترام

العقل الجماعي للأمة ثم يطالبون بمصادرة هذا العقل لحساب عقل واحد غير مألوف.

وإذا كان ما يقولونه صحيحاً : من أن تقدمنا ونهوضنا وتحقيق وحدتنا لا تنتظر إلا وجود الكاريزماتيكي لكي يتولى قيادتنا فما الذي يمنعنا من إحضار هذا الرجل ونحن لدينا بدل الواحد ألف رجل إذا يكفي أن نذهب إلى أية ضيعة أو شارع في لبنان كي نعثر على ضالتنا باعتبار أن لبنان أصبح مخزن العالم العربي في القادة " الكاريزماتيكيين " الذين أثبتوا براعتهم ونجاحهم في تحطيم وتدمير أبهى بلد وأجمله في العالم العربي.

بات تعدد الزوجات في مجتمعاتنا أمرا نادر الحدوث وعلاوة على انتشار الوعي وارتفاع نسبة المتعلمين من نساء ورجال فإن ظروف الحياة

العصرية ومطالبها صارت تفرض نوعاً من السلوكيات يختلف كثيراً عن سلوكيات أزمنة مضت. لقد انتهى ذلك العهد الذي يتولى فيه الرجل مهما كان فقيراً ومحدود الدخل إنجاب ما شاء من الأطفال من زوجاته الثلاث أو الأربع يرسل بهم إلى الحقل أو يبعث بهم وراء شياهه أو يؤجرهم رعاة وخدما لدى الآخرين ويعتبرهم عمالة رخيصة تدر عليه دخلاً ولا تكلفه شيئاً سوى أرغفة الخبز.

ويكفي هذه الأيام أن تأخذ أسرتك لقضاء إجازة قصيرة خارج قريتك لتكتشف أن العالم لم يعد مفصلاً عن مقاس العائلات الكبيرة وإذا كنت صاحب عائلة تزيد على خمسة أشخاص فأنت في مشكلة منذ أن تبدأ حجز تذاكر الذهاب إلى أن تبدأ بحجز تذاكر العودة وستكون أولى أزماتك وأنت تباشر الهبوط في البلد الذي اخترته لقضاء الإجازة هي البحث عن سيارة أجرة إضافية لكي تقل ما تبقى من أفراد

الأسرة الذين أبت أن تتسع لهم سيارة الاجرة الأولى وإذا كنت محظوظاً وعثرت على سائق ماهر يتبعك ببقية الأسرة دون أن يضل بهم الطريق فستجد أزمة أخرى عند وصولك إلى الفندق لأنه حتى إذا توافر ما يكفي من الغرف فلن تجد أكثر من غرفتين متجاورتين، أما الغرفة الثالثة فلن تكون إلا في جزء آخر من الفندق.

وإذا أنجاك الحظ من ضياع أحد الاطفال أثناء هذا الانفصال وذهبت بجيمع من معك لتناول الغداء فستحدث أزمة أخرى في المطعم الذي شرفته بزيارتك لأن كل مناضد المطاعم معدة لاستقبال أربعة أو خمسة أنفار وسيضطرون إلى تغيير نظام المطعم وإحداث ركن خاص يضمون فيه طاولة إلى أخرى كما يحدث عند إقامة المآدب الرسمية ولسوف تكتشف أثناء ذلك أن المؤسسات السياحية في العالم ليست مهيأة لاستقبال عائلة بهذا الحجم وأنك كنت

مخدوعاً عندما ظننت أن الاحتفاظ بزوجة واحدة وإنجاب خمسة أطفال قد حقق لك توافقا وتوازنا مع إيقاع العصر لأنك برغم كل هذه التضحيات والتخلي عن تقاليد العائلة التي تفاخر بكثرة الإنجاب مازلت لم تحقق هذا التوافق الذي تنشده ومازال العالم يعتبرك حالة استثنائية ويعتبر صبيك الرابع والخامس زائدا عن الحاجة وستعود مكتئبا إلى قريتك من هذه الإجازة التي قصدت بها الترفيه والترويح فإذا بها تتحول الهموم وأزمات وكوابيس، ولكن اكتئابك لن يدوم طويلاً إذا إنك سرعان ما تكتشف أن قريبا لك جاء إلى الدنيا بأكثر من عشرة أطفال زائدين عن حمولة سيارات الأجرة ومناضد مطاعم " البيتزا " وفنادق النجمة الواحدة، بل إنك سوف تقرا خبراً يبهجك كثيراً ويفك الضيق الذي كان يرافقك إثر هذه الإجازة يتعلق بما أفلح الآخرون في إنجابه من صبيان وبنات مثل الخبر الذي نشرته الصحف منذ

عدة أيام عن مواطن من كينيا لا ينتمي إلى زمن مضى وإنما ينتمي إلى هذا الزمان ولا يزيد عنك كثيراً في العمر فهو مازال في سن الزواج والإنجاب ومع ذلك فقد تزوج حتى الآن ١٢٦ امرأة ووصل عدد أبنائه وبناته إلى ٤٩٧ ولداً وبنتا، وستجد أن ما صادفك من مواقف أثناء إجازتك أشياء لا معنى لها بجوار ما يمكن أن يصادف هذا المواطن الكيني لو أنه أخذ أسرته في إجازة إلى إحدى المدن السياحية، وستجد أنك لم تعد تخشى بعد هذا الخبر إنجاب مزيد من الأطفال. أما عن النساء فطالما أن هذه الفلاح الكيني قد تزوج كل هذا العدد من الزوجات أفلا يحق لك أنت وبعد كل هذه الأعوام التي قضيتها برفقة امرأة واحدة أن تفكر في زوجة ثانية.

السرعة التي تكبر بها بعض المدن العربية سرعة قياسية بالنسبة إلى كثير من مدن العالم وهي سرعة قياسية أيضاً بالنسبة لمراحل نمو المدن وتطورها في العصور السابقة إذ إن أغلب هذه المدن حققت نمواً خلال العقود الثلاثة الأخيرة يفوق ما حققته خلال أكثر من عشرين قرنا من تاريخها.

وبرغم ما يرافق هذا النمو الاتساع من جوانب سلبية أهمها ضياع مساحات زراعية في بلدان ذات صبغة صحراوية ومناطق زراعية محدودة جداً ورغم ذلك فإن هذا الاتساع السريع إنما يعبر عن حجم التحول وضخامته كما يعبر عن قوة برامج التنمية وسرعة وتيرتها ويعكس رغبة شعوبنا للحاق بركب العالم المتقدم وصار من واجب هذه المدن أن تستخدم آخر ما تحقق من إنجازات في مجال المعمار وأن تستفيد من كل العلوم الحديثة التي تتعلق بتخطيط

المدن وهندسة البناء وثمة ملمح عصري وحضاري من ملامح المدنية الحديثة كثيراً ما ننسى أن نعمل له حسابا في هذه المدن وهو المركب الثقافي الذي أحلم بأن أرى مثله في كل مدينة عربية كبيرة لقد انبهرت به عندما رأيته لأول مرة في بعض عواصم العالم ثم أصبح شيئاً يتبارى أهل المدن الكبيرة في الحصول عليه أن مبنى " الباربيكان " في لندن ومركز " بومبيدو " في باريس يمثلان آخر ما تحقق من مركبات ثقافية في هاتين المدينتين إنه مجمع للمرافق الفنية والثقافية يشمل أول ما يشمل المكتبة بكل فروعها وأقسامها من مكتبة المراجع إلى مكتبة القراءة والإعارة ثم مكتبة بيع الكتب وأخرى خاصة بالأطفال وثالثة لعرض ما يصدر في العالم من صحف ومجلات ودوريات متخصصة ولأن المواد الإعلامية السمعية والبصرية صارت تمثل ميدانا رئيسياً في ميادين المعرفة فقد اعتنت هذه المراكز

بتخصيص مكتبة الأشرطة المسجلة المسموعة ومكتبة أخرى للأشرطة المسجلة المرئية تحتويان على التراث الموسيقى والغنائي والتسجيلات التاريخية النادرة للأدباء والفنانين والسياسيين والأفلام الوثائقية والأفلام الروائية وغير ذلك من مواد فكرية وثقافية تقدم للعرض والإعارة كما تخصص قسما للبيع والاقتناء تشجيعاً للجمهور على استهلاك الثقافة ويشتمل هذا المركب الثقافي أيضاً على قاعة لتقديم العروض السينمائية ذات القيمة الفكرية والفنية يدخلها الناس بالتذاكر كما يشمل معرضاً لأهم ما توفر في المدينة من لوحات وتماثيل مع قاعة أخرى لتقديم معارض متجددة للفنانين التشكيليين وأعمال الرسامين والنحاتين المعاصرين ويقوم المركز بتوفير قاعة كبيرة للمحاضرات وتنظيم المؤتمرات مع قاعات أخرى لإقامة الندوات والحلقات الدراسية والموائد المستديرة واستضافة الورش الأدبية التي ينشدها

المشتغلون بمختلف مجالات الإبداع ويجب أن يشمل المركز قاعتين للعرض المسرحي : واحدة صغيرة للمسارح التجريبية والعرض الخاص وأخرى كبيرة لإحياء الحفلات الموسيقية وعروض المسرح الجماهيري بالإضافة إلى هذه المرافق الفنية يجب أن يشمل هذا المركب الثقافي مقهى ومطعما وحديقة للنزهة والاستراحة وأن يكون باتساع هذه المركبات السياحية الحديثة وجمالها مع فارق واحد هو ضرورة أن تراعى طبيعته الثقافية فيتم تصميمه وبناؤه وفق فنون العمارة العربية الإسلامية تأكيداً للهوية القومية والشخصية الحضارية لأمتنا.. إن معدلات الاستهلاك الثقافي (قراءة الكتب وارتياد المسارح والإقبال على المحاضرات والندوات العامة.. إلخ) معدلات ضعيفة جداً في عالمنا العربي. ومثل هذا المشروع سيكون وسيلة مضمونة لإرغام الناس على التحصيل والمعرفة.

لا أعتقد أن بإمكان أي إنسان عاقل أن يقول عن مثل هذا المشروع إنه ترف أو جهد زائد عن الحاجة ولذلك فإن متعهدي تكريس الجهل والتخلف سوف يتحججون بعدم قدرة الميزانية العامة على استيعاب تكاليفه الباهظة ولقطع الفرص عليهم أقترح أن تطرح تكاليف المشروع للاكتتاب العام ولمساهمات المتحمسين وتبرعاتهم وأنا على ثقة من أن الشعب بفطرته السليمة سوف يتحمس لإنجاز هذه القلاع الحضارية وبنائها.

-٣٧-

إذا ما سألني سائل عن أبرز مظاهر التغيير التي تقابل العين عند الذهاب إلى قرية من قرانا العربية لقلت على الفور " هوائيات التليفزيون " فقد نبتت على مدى الأعوام الأخيرة شبكة من الهوائيات

فوق بيوت القرى ذات الطابق الواحد لتصنع طابقاً ثانياً كأنه غابة من الأشجار ذات الأغصان الحديدية.

إن هذه الهوائيات أكثر بروزاً في القرى منها في المدن كما أنها لم تحقق انتشاراً واسعاً وسريعا إلا في السنوات الأخيرة لقد عرفت القرية العربية تغييرات كبيرة على مستوى التعليم والعلاج والمشاريع الإسكانية والميكنة الزراعية ووسائل النقل والمواصلات كما لحق هذا التغيير الخدمات التي تتعلق بالماء والكهرباء والطرقات ولكن هوائيات التليفزيون صارت الآن أكثر مظاهر التغيير وضوحاً أن أغلب محطات التليفزيون في الوطن العربي بدأت بإرسال محدود يغطي مناطق الكثافة السكانية في المدن الكبيرة ولم يصل هذا الإرسال إلى أعماق الأرياف والبوادي إلا بعد أن بدأت البلدان العربية تتوسع في بناء محطات التقوية التي تقتضي جهدا وتكلفة أكثر مما تقتضيه بداية الإرسال ولا بد أن هذه

المحطات صارت تشمل أغلب أن لم يكن كل مناطق الوطن ولا أدري ما الذي أحدثه التليفزيون من تغيير على أسلوب الحياة في القرية العربية في زمن لم نقرأ من البحوث الميدانية ما يرضي فضولنا لمعرفة تأثير هذا الجهاز الخطير على حياة أهلنا في هذه القرى وما نتج عنه من تحولات في الأفكار والاتجاهات والقناعات التي عاش عليها الناس لأزمنة طويلة نستطيع أن نعرف بداهة أنه منذ أول يوم دخل فيه هذا الجهاز إلى بيت من بيوت القرية أحدث تغييراً كبيراً في أساليب السهر وتزجية الفراغ ومواعيد النوم ولكن التغيير الأكبر الذي يتجاوز السطح إلى الاعماق ما زال بحاجة إلى دراسات ترصد تفاعلاته وتراقب تقدمه عاماً بعد عام.

لقد قرأنا كثيراً عن المساعي الكثيفة التي تبذلها المؤسسات العربية لتوحيد مناهج الدراسة في المدارس والمعاهد والجامعات والوصول إلى قواسم

مشتركة في السياسة التعليمية ولكننا لم نقرأ أو نسمع شيئاً عن توحيد مناهج الدراسة في هذه المدرسة التي يجلس إليها كل الناس على مختلف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية إذ ليس من الحكمة أن نترك هذا الجهاز الواسع الانتشار والبالغ التأثير بعيداً عن مخططات العمل العربي، المشترك يجب أن نضع له سياسة عربية مشتركة تتجاوز هذا الجهد الصغير المحدود الذي يكتفي بتقديم سهرة عربية أو حصة شهرية لتعريف الأقطار العربية بعضها ببعض.

إن هذا الجهاز بقدر ما يمكن استخدامه استخداما يكرس مبدأ التفرقة والعزلة من خلال الاستغراق في تقديم المادة المحلية وتنمية الشخصية القطرية فإنه يمكن توظيفه لترسيخ قيمة الوحدة وإذكاء روح التعاون وتعزيز أسس الشخصية الحضارية لأبناء أمتنا، ولذلك فإنني أتمنى أن نصل إلى تطبيق فكرة أكثر جرأة وشجاعة من مجرد

الاتفاق على مبادئ للتعاون المشترك وهي أن تنشئ البلدان العربية مجتمعة قناة ثقافية موحدة تبث إرسالها عبر الأقمار الصناعية إلى كل البلدان العربية لا تشغل نفسها بالتوجهات السياسية المتباينة وإنما تتعامل مع القضايا الأساسية والمصيرية التي تهم كل الوطن العربي وتسعى لتأكيد الانتماء لهذا الوطن من خلال التركيز على الميادين الثقافية ومجالات العلم والفكر والادب والفن حيث يتم في هذه القناة الانتفاع من كافة القدرات والمهارات الإعلامية ورجالات الفكر والثقافة لتعزيز الهوية العربية الإسلامية.

إن تحديا كبيراً تطرحه الآن شبكات الإرسال التليفزيوني التي تبث برامجها عن طريق الأقمار الصناعية والقادمة من كل حدب وصوب ومثل هذه القناة ستكون الرد الوحيد الممكن على هذا التهديد الذي يواجه شخصيتنا الحضارية.

لا شك أن ابن هذه الدولة الصغيرة المعدمة التي جاء النفط فبدل أقدارها من الفقر إلى الغنى يدرك أن هذا الذي حدث إنما هو فرصة تاريخية نادرة لن يتكرر على الأغلب حدوثها في تاريخ بلاده القريب أو البعيد. إن ملايين السنين قد انقضت قبل أن تأتي الهبة الاستثنائية التي سوف تستمر لمدى زمن قصير ثم تنتهي وهناك من الإشارات ما ينبئ بأن هذا المدى صار محدوداً جداً فما الذي تراه قد فعل بهذه الفرصة التي لا تتكرر في تاريخ الأوطان والشعوب؟ إن هذا الكنز الذي اختبأ منذ بدأ الخليقة تحت التراب ثم كشف عن نفسه الآن إنما هو اختبار لابن هذه البلاد قبل أن يكون مجرد نعمة عابرة إنه اختبار لعقله وحكمته بقدر ما هو اختبار لضميره ونزاهته إذ ما أسهل أن تصبح هذه الفرصة الثمينة النادرة فرصة ضائعة لمن لم يستعمل عقله وأهدر في

نزق ورعونة ما جاء به النفط من خير وثروة وهو اختبار لضميره باعتبار أنه يستطيع تحت كل الظروف أن يضمن لنفسه حياة مرفهة بفضل هذه الفورة النفطية ولكن هل تراه قادر على أن يفكر في الأجيال التي تأتي من بعده وحقها في أن تنال ولو شيئا يسيراً من الرخاء الذي ناله.

حقاً إن هذا المواطن الذي ينتمي إلى دولة نفطية صغيرة (والحديث هنا لا يشمل الدول الكبيرة التي تتعدد مواردها بحيث يمثل النفط جزءاً من هذه الموارد) قد لا يكون سعيداً كل هذه السعادة التي يتصورها من ينظرون إليه من وراء الحدود. فلا شك أن الذين اكتشفوا لبلاده النفط لم يكونوا مبرئين من الشبهات لقد ظل عملهم ولسنوات طويلة ابتزازاً واستغلالا سيئا يستهدف استنزاف هذه الثروة قبل أن تنتبه البلاد النفطية لحقوقها وتفرض مبدأ المشاركة وإنشاء الشركات الوطنية والوصول بالأسعار إلى

حدها المعقول، ثم بدأت الصراعات الدولية تأخذ مع ظهور النفط شكلاً أكثر حدة وتفجرت في هذه المنطقة أكثر الصراعات شراسة وعنفا واشتعلت على أطراف بلاده حروب ونزاعات لصرفه عن الاهتمام بقضايا البناء والحضارة. ثم عندما أصاب الخير كل الناس نشأت مشكلات اجتماعية واقتصادية عديدة من بينها نضوب أغلب الموارد الأخرى وموت صناعات تقليدية ومهن شعبية قاومت الزمن آلاف السنين فجاء النفط يصيبها بالموت الفجائي ويقضي على الناس العارفين بأسرارها وأنتج الاعتماد على ثروة لا أحد له الفضل في إنتاجها نوعاِ من الاتكالية والاستهتار بالجهد الإنساني وجاء جيل المدارس الأجنبية ليضيف إلى المشاكل القديمة مشاكل جديدة. هذا مجرد جانب من جوانب المعاناة التي يعيشها مواطنو الدولة النفطية الصغيرة وبرغم كثرة المشاكل إلا أنها مجرد أعراض يمكن الحد من أخطارها ومكافحة آثارها

ومضاعفاتها لو أدرك ابن هذه الدولة النفطية أن ما تبقى من الوقت صار الآن محدوداً وأن ما ضاع من الوقت وجب الآن تعويضه بأقصى قدر من العمل والجهد واستخدام العقل والعلم لكي لا تضيع هذه الفرصة النادرة ولكي لا تصبح هذه الثروة التي انبثقت من جوف الأرض وكأنها حلم منتصف ليلة صيف..

-٣٩-

يكثر الحديث عما يسميه المثقفون بـ " الاستلاب " الذي يعني انبهار بعض الناس بمجتمعات التقدم الصناعي والتأثر بها إلى حد المبالغة في تقليدها والتشبه بهم والانسلاخ عن الشخصية الحضارية التي ينتمون إليها.

ولا شك أن الشخص الذي يعاني من مثل هذه الحالة لا يوافق على نعته بالمستلب ولا يعترف بأن

ما يعانيه حالة مرضية ويعتبر تأثره بالغرب وانسياقه وراء مظاهر الحياة الحديثة كما يعيشونها هناك تقدما وعصرية وحضارة لقد ابتليت بعض أقطارنا العربية بنوع من الاستعمار الاستيطاني الذي أراد تغيير الصيغة الديمغرافية للبلدان التي احتلها كما حدث في المغرب العربي وترك هذا الاستعمار آثاراً ما زال الكفاح ضدها مستمراً لقد أرغم الاستعمار الفرنسي الناس على ترك اللغة العربية والتعامل باللسان الفرنسي، وكان هذا الارغام يسمي " استيعابا " ثم انتهي المستعمر الفرنسي ونجحت برامج التعريب وتراجعت اللغة الفرنسية إلى مكانها الطبيعي كلغة أجنبية طارئة على البلاد ولم تعد المشكلة هي مشكلة المواطن الذي أرغموه على تعلم الفرنسية لأنه برغم ذلك ظل قلبه عربيا وإنما صارت مشكلة بعض الناس الذين نشئوا في عهد الاستقلال وبرامج التعريب وعاد لهم لسانهم العربي ومع ذلك تجدهم ضعفا واستلابا

يهجرون التعامل بلغتهم الوطنية لحساب لغة المستعمر القديم.

إنه نوع من الاستلاب شديد الوضوح بحيث يمكن معرفته والتصدى له وهناك نوع آخر من الاستلاب أقل وضوحاً ولهذا السبب فهو أكثر خطورة وضحاياه هم أكثر الناس تشدداً وعناداً في مهاجمة الغرب الاستعماري ومخاصمته ورفض ثقافته ولكنهم من حيث لا يدرون يقعون تحت تأثيره ويتطوعون لخدمة أغراضه وأهدافه.

ومنذ سنوات كثيرة مضت وقبل أن تصبح كلمة " الاستلاب " مصطلحاً يعبر عن ظاهرة ما كانت هذه الظاهرة تجد الجليات لها في مواقف بعض المثقفين والكتاب العرب فقد حدث اثناء الحرب العالمية الثانية أن هب الكثير من هؤلاء الكتاب للتنديد بمواقف ألمانيا عندما أرسلت جيشها للاستيلاء على مدينة باريس لتدخل إليها دون حرب وكتبوا القصائد

والمقالات تأسيا لمدينة النور والجمال التي تعاني ويلات الاحتلال وتأسفا للشعب الفرنسي الذي تجرع غصص المذلة والمهانة تحت سنابك خيل الألمان ناسين أن هذا الشعب الفرنسي هو ذاته الذي احتل في ذلك الوقت أقطارا عربية في مشرق الوطن ومغربه وانه إذا ما تجرع غصص المذلة والمهانة لأيام وأسابيع فإنه وعلى مدى قرن من الزمان ظل يستبيح حرمة بلدان عربية ويسقي أهلها كؤوس المذلة والهوان لقد تذكر ذلك المثقف العربي مأساة فرنسا ونسي المأساة التي يعانيها أهله و في مواجهة أولئك الشعراء والكتاب الذين تماهوا مع المستعمر الفرنسي حتى نسوا أنفسهم كان هناك شعراء آخرون يستمدون قوتهم من عمق التزامهم بقضايا أمتهم مثل الشاعر القروي الذي وجد الاحتلال الألماني لباريس مناسبة لكي يذكر الشعب الفرنسي الذي كان يئن ويتوجع لأنه فقد حريته بأن هناك شعباً عربياً يئن ويتوجع منذ

عشرات السنين لأنه فقد حريته على أيديكم أيها الفرنسيون فليكن هذا الاحتلال الأجنبي لبلادكم تجربة تعلمكم مدى قبح وبشاعة أن يغتصب إنسان حرية إنسان آخر.

-٤٠-

يعزو أرثر كويستلار - الكاتب والفيلسوف الذي توفي منتحراً منذ سنوات قليلة بعد أن تقلب بين مختلف المذاهب السياسية - يعزو ما يحدث من كوارث وحروب في عالمنا إلى شيء واحد هو وجود عطب فطري في التكوين العقلي للإنسان. وسواء جاء هذا الرأي نتيجة استقراء للتاريخ أو نتيجة يأس من إصلاح العالم فإنني لا أعتقد أن هناك حرباً عبثية جنونية تدل فعلاً على وجود هذا العطب مثل الحرب الإيرانية العراقية التي نأمل أن يكون الستار قد أسدل على آخر فصوله. حرب يذهب ضحيتها مليون قتيل

وتدور بين شعبين تجمعهما وشائج وروابط لا حصر لها وفي مقدمتها رابطتا العقيدة والجوار، حرب استنزفت موارد وقوى وإمكانات بلدين شقيقين ووضعت المنطقة برمتها تحت تهديد التدخل الدولي وزرعت الاحقاد والخلافات بين أبناء الدين والواحد حرب لم يستفيد بها إلا أعداء الأمتين العربية والإسلامية ولم يفرح باستمرارها إلا تجار الكوارث وعصابات بيع الأسلحة وحكام الكيان الصهيوني لأهدف لها، ولا معني ولا سبب لقيامها سوى الصاف والغرور والتعنت وخداع النفس والتطرف في التمذهب الديني الذي لا يرضى به ا ولا رسوله.

تأتي الآن نهاية هذا الحرب لتؤكد سقوط المشروع الإيراني برمته هذا المشروع الذي استعار مفاهيمه وقوانينه من عصور الظلام والعصبية الأولى لقد فشل المشروع الإيراني سياسياً قبل أن يفشل عسكرياً وسقط تاريخيا قبل أن يسقط على مستوى

التعامل الآنى مع معطيات الواقع لأنه منذ الأساس كان مشروعا متخلفا عن عصره وزمانه سقط المشروع الإيراني على مستوى الداخل كما سقط على مستوى الخارج وبقدر ما فشل في تصدير ظلامه إلى خارج الحدود فقد فشل أيضاً في التعاطي مع مواطنيه في الداخل أو تقديم أي مبرر لاستمراره ووجوده لقد أظهرت ولاية الفقيه إفلاسها وأثبتت حكومة الآيات أنها عندما استلمت الحكم لم تستطع أن تقدم لمواطنيها شيئاً على مستوى تحقيق أحلام المستضعفين في الأرض بل بالعكس فهي لم تقدم لهؤلاء المستضعفين سوى الخراب والموت.

لقد هللنا جميعا للثورة الإيرانية أول ما جاءت إلى الحكم فها هو نظام يقوم مقام عرش الشاهنشاه الذي كان مناوئا للعرب ومواليا لإسرائيل نظام يرفع راية الإسلام ويطرد المسافات والموساد ويدعو من فوق منابره وإذاعاته للجهاد من أجل تحرير فلسطين

واستعادة القدس كيف لا نعبر عن فرحتنا بقدومه ونتحمس أعظم الحماس لتأييده ونكتب المقالات تعريفا بإنجازاته وتمجيداً لأبطاله وشهدائه، ولكن الثورة العظيمة سرعان ما انتكست وخيبت الآمال بدأت أول ما بدأت بأكل أبنائها قبل أن تبدأ بأكل أبناء الآخرين وتوارت من فوق المسرح السياسي الرموز المستنيرة من أمثال بازركان وبني صدر وغيرهما من قادة عصريين وبقي المجال فسيحا أمام رجل ملأت أخبار إعداماته صحف العالم هو " خلخالي " الذي تحول إلى تجسيد لأبشع الجوانب وأقبحها في هذا النظام وكأن شهية أصحاب هذا النظام إلى الدم لا ترويها إلا حرب شريرة مجنونة عبثية لا تبقي ولا تذر فجاءت هذه الحرب واستمرت كل هذه السنين وأودت برقاب كل هؤلاء البشر.

لقد سقط المشروع الإيراني الظلامي الخميني..

ولكن ما أفدح الثمن.

- ٤١ -

إذا كان الرجل المتوافق مع بيئته المنسجم مع نفسه الذي حقق تواصلاً وتكاملاً مع الناس والحياة وتوازنا وسلاماً مع الواقع الذي حوله هو النمط السائد في العالم المتقدم الذي أنجز استقراره السياسى منذ مئات السنين فإنه في بلاد العالم الثالث ومنها عالمنا العربى مازال نوعاً نادراً وأقلية صغيرة ضئيلة لأن حياة الإنسان في هذا الجزء من العالم الذي ينشد التقدم والنمو محكومة بمجموعة من التناقضات التي تنعكس على نفسية هذا الإنسان وتكوينه.

إن أغلب أقطار العالم العربى على سبيل المثال تعيش حالة من التحول والانتقال.

الانتقال من المجتمع القروى البدوى الرعوى الزراعى أو شبه الزراعى إلى مجتمع التحضر

والتمدن والصناعة والميكنة الزراعية والانتقال من مجتمع الإرث الاستعمارى إلى المجتمع الذي تحرر من هذا الإرث وأنجز بناء شخصيته الحضارية المستقلة عن تأثير المستعمرين.

الانتقال من ظروف المجتمع التقليدى الذي تحكمه مفاهيم تخلفت عن زمانها إلى ظروف وملابسات المجتمع الذي ينشد التطور ويستجيب لإيقاع وحضارة العصر الانتقال من مجتمع الأميين والمحرومين من التعليم إلى مجتمع المؤسسات العلمية والتربوية، الانتقال من المجتمع الأبوى إلى مجتمع التكامل وتكافؤ الفرص بين الجنسين، والانتقال من مجتمع البداوة إلى مجتمع الحضارة وكل هذه التحولات تترك أثارها في نفسية المواطن وتجعله ممزق الولاءات بين تربية تقليديه وبين مكتسبات وتجارب ومعارف عصرية.

حقا إن وتيرة التحول صارت أقل حدة مما كانت عليه منذ ثلاثة أو أربعة عقود مضت حين كان الصراع بين القديم والجديد أكثر ضراوة وكانت عملية التحول تجتاز أخطر مراحلها أما الآن فقد انتهت أغلب البلدان العربية من إنجاز البنية التحتية من مدارس ومستشفيات وطرقات ومساكن كما إنها قطعت أشواطاً كبيرة على طريق بناء الأطر والكوادر واستصلاح الأراضى الزراعية وتوطيد ما تبقى من البدو الرحل وتحقيق القاعدة الضرورية لبناء مجتمع التمدين والحضارة.

إن مثل هذه التحولات الكبيرة في تاريخ المجتمعات غالباً ما تستغرق زمنا طويلاً وغالباً ما تصيب بآثارها أكثر من جيل. إن حالة القلق التي يعيشها أبناء هذه المجتمعات يمكن أن تشل قدراتهم على العمل والإنتاج بقدر ما يمكن أن تكون هى ذاته باعثاً وحافزا على العمل والإبداع والابتكار، والكتب

التي تتحدث عن القلق المنتج الخصيب تفسح مساحة بنفس القدر للحديث عن القلق الذي يدمر الإنسان ويصيبه بالعقم والعجز إنها مسألة وعي وإدراك لخطورة هذه المرحلة وقدرة على فهم هذه الحال لتوفير كل الظروف التي تجعل هذا القلق عامل خصب وإبداع لاعامل هدم وتخريب.

- ٤٢ -

لا أدرى كم بلغ عدد الجامعات في عالمنا العربى هذه الأيام على وجه التحديد، ولكنه لا يقل بأية حال من سبعين أو ثمانين جامعة في حين أنه في الأربعينيات وإلي بداية الخمسينيات لم يكن عدد جامعاتنا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ولم يكن هناك أي ذكر للمعاهد العليا أو البعثات الدراسية التي ترسلها الحكومات إلى بلدان التقدم الصناعي بهذه الأعداد الهائلة كما هو الحال الآن حيث يبلغ عدد المعاهد العليا عدة مئات

ويصل عدد الموفدين للدراسة بالخارج إلى عشرات الآلاف، لقد اتسعت رقعة التعليم في بلادنا اتساعا مهولا وتكاثر أصحاب الشهادات العالية وحاملو ألقاب الدكتوراه حتى صاروا يزيدون عن الحاجة وشهدت مجتمعاتنا العربية تحولات كبيرة في هذه الميادين وما عاد المجال يسمح بالمقارنة بين ما كانت عليه وما آلت إليه، ولكن يبقى لتلك المراحل التعليمية المبكرة التي سبقت هذه التحولات ميزة خاصة لن تتكرر مع أزمنة الانتشار والغزارة وطغيان الكم على الكيف إذا إن تعليم الأطفال في تلك الأيام كان رسالة ذات إجلال واحترام وليس مجرد عمل أو نهضة (وأعتقد أنه مازال كذلك لدى كثير من الناس) ولكن المهم أن الذين يؤدونها في ذلك الوقت كانوا من العلماء والمثقفين الكبار الذين ثقفوا أنفسهم بأنفسهم، وكانت العلاقة بين الطالب والمعلم لا تنشا عبر مكبرات الصوت وقاعات الدرس التي تضم الآلاف كما هو

الحال الآن، وإنما كانت علاقة ذات خصوصية لا تعرفها أساليب التعليم الحديثة أن الفرق بين أسلوب التدريس في تلك الأيام عندما كان العدد صغيرا وبين التدريس هذه الأيام مثل الفرق بين ثوب ينسج نسيجاً يدويا وبين ثوب ترمى به آلات النسيج الكبيرة ضمن آلاف وملايين الأثواب الأخرى. كان المعلم هو هذا الناسج الذي يضع شيئاً من جهده وعقله ووجدانه في كل عقدة من عقد الثوب. وكان التعليم يضم نوعاً نادراً من الرجال الذين صاروا مضرب أمثال في سلوكهم ونزاهتهم وتضحياتهم. كانت الظروف في الأربعينيات ظروف فقر وخروج من حرب عالمية لحق أذاها كل الناس وكان الفصل الدراسى في بعض الأحيان مجرد كوخ من الصفيح. وكان المعلم القادم من المدينة يرضى بالحياة تحت أسوأ الشروط، ومع ذلك فهو يؤدي رسالته بكل أمانة ومسئولية، وكان المفتش الذي يذهب لتفقد حالة الطلاب في القرى

البعيدة يقف على قارعة الطريق ينتظر شاحنة يرضى صاحبها بأن ينقله فوق أشولة الفحم، وكان يفعل ذلك بحب وإخلاص دون أن يكون ملزما أو مكلفا بأن يركب بالشاحنات أو يجلس فوق أشولة الفحم ودون أن ينتظر ثوابا أو جزاء من أحد ودون أن يسأل عن علاوات السفر وليالى المبيت. لقد صارت التقاليد الكريمة الجميلة تضيع وسط زحام الهموم والمشاكل التي تاتى مع تطور الحياة ونمو المجتمعات. ولكن تقليدا كريما جميلا أتمنى أن يبقى معنا وهو تكريم من تبقى من هؤلاء الرواد المبدعين الأفذاذ.

- ٤٣ -

يمكن القول أن الخط البياني لحياة أي إنسان راشد ليس إلا مجموعة من الدروس التي تتوالى درسا بعد الآخر.

ولعل أول درس نهتدي إليه منذ مراحل الوعي الأولى هو أنه لا ثبات للأفكار والآراء والقناعات وأن هذه الآراء والافكار والقناعات يلحقها التبدل والتطور مع تطور الوعي والثقافة والحصيلة العلمية ومع نمو الإنسان في السن والتجربة حتى يصل إلى مرحلة النضج حيث يتحقق لهذه الافكار شيء من الاستقرار ولا أقول الثبات، ويكفي أن ينظر الواحد منا إلى نفسه ويتأمل المراحل التي انقضت من حياته فبالتفاتة بسيطة إلى مرحلة سابقة من مراحل العمر سوف نكتشف مدى ما أصاب أفكارنا من تبدل وتغيير وكيف أن ما اعتبرناه ذات يوم حقيقة مطلقة قد أصبح اليوم شيئا مناقضا للحقيقة وما ظنناه في مرحلة ما رأيا صائبا، ها نحن اليوم نكتشف أنه كان رأيا بعيداً عن الصواب إننا ناسف اليوم لأننا دخلنا معارك وخصومات حول تلك الآراء واتخذنا مواقف عدائية من أناس يحملون ذات الأفكار التي صرنا

اليوم نحملها ونتمنى لو أن الزمن يعود بنا إلى الوراء لنصحح مواقفنا ولكن الزمن لا يعود والدرس الوحيد الذي نخرج به من هذه التجارب والخبرات هو أن الواحد منا يخطئ كثيرا جداً عندما يظن أنه قد ملك الحقيقة الكاملة وأن من خالفه قد صار مارقاً آثما استحق اللعنة والعقاب.

إنني لا أتحدث هنا عن المبادئ الأخلاقية التي نتربى عليها منذ طفولتنا، ولا عن الإيمان با الذي نشربه مع حليب أمهاتنا، فالإنسان لا يغير دينه كل عام أو كل عقد من السنين ولا يحرم السرقة اليوم ويحللها غداً، ولكن الآراء السياسية والمذاهب الفكرية والمفاهيم التي تتعلق بالدين والدنيا والسلوك والمعاملات كلها خاضعة للتبدل والتغيير بل إن الواحد منا قد يرى اليوم رأيا في شأن من شئون الدنيا ثم يلتقى بمعلومات جديدة أو يتزود بخبرة خاصة فإذا به في اليوم التالى قد رأى رأيا آخر

مخالفاً لرأيه بالأمس وهذا الكلام الذي يبدو بديهيا أسوقه لأبناء لنا لا يزالون في سن الصبا تجاربهم لم تكتمل وعودهم مازال طريا وبناؤهم الفكرى والثقافي في طور التكوين هؤلاء هم للأسف الشديد عدة وعتاد هذه الجماعات المتطرفة جماعات طائفية وأخرى مذهبية دينية وسياسية أسلحتها السيارات المفخخة والقنابل الموقوتة والمسدسات المزودة بكواتم الصوت تتوسل لتحقيق أهدافها بخطف الطائرات وقتل الأبرياء وزرع القنابل في الأسواق والمستشفيات انتهى الحوار والنقاش ولم يبق إلا منطق القنبلة باعتبار أن كل إنسان آخر لا يقول بقولهم إنما هو إنسان خائن كافر من المنتمين لحزب الشيطان.
لهؤلاء الشباب أسوق هذا الكلام إذ إننى على يقين من أن هذا الشباب الذي انساق اليوم وراء إحدى هذه الحركات المتطرفة لن تمضي سوى بضع سنوات يزداد فيها تفتحا ومعرفة حتى يدرك أن ما ظنه حقيقة

مطلقة لم يكن حقيقة ومطلقة، وما ظنه واجبا مقدسا عندما قتل خصومه لم يكن واجبا مقدسا وإنما جرائم بشعة سوف تورثه الندم وعذاب الضمير.

- ٤٤ -

كثيرا ما نرى كيف يتجاور الفقر والغنى في المدن الكبيرة حيث تلتصق أحياء الفقراء بأحياء الأغنياء فلا يفصل بينهما إلا شارع أو طريق وعلى تخوم هذين العالمين المتباينين تنشأ قصص وحكايات يستمد منها مؤلف الدراما الإذاعية مادة خصبة وغنية لتمثيلياته المسموعة أو المرئية المضحكة والمبكية أن أى لقاء يتم بين قاطني هذه الأحياء المتجاورة يمكن أن يكون موقفا دراميا. إن لقاء طفل بطفل آخر على تخوم هذين العالمين سوف يتيح للمؤلف فرصة عظيمة لتصوير البراءة التي تحاول أن تعبر عن نفسها في عالمي فقد البراءة، وسوف يزوده هذا اللقاء

بشحنة من العواطف والانفعالات التي تهز مشاعر المشاهدين والمستمعين.

أما إذا كان اللقاء الذي يقع على الحدود بين نساء ورجال فالمجال سيكون مهيأ لنشوء العلاقات العاطفية المعقدة وظهور عوامل الصراع والتحديات التي تجعل كتابة العمل الدرامي أكثر يسراً وسهولة ولعل أعظم اللحظات إثارة لمشاعر هذا المؤلف هي لحظة أن يرى أحد السكان يعبر الطريق إلى الضفة الأخرى من الشارع وينتقل للإقامة في الحى الآخر.

فإذا كان الانتقال من حي الفقراء إلى حي الأغنياء، فالقصة إذن قصة نجاح وصمود واختراق لحاجز الفقر مما يتيح للمشاهد أو المستمع فرصة التماهى مع بطل القصة والاستمتاع بالحلم الذي راوده كثيراً وقد تحقق على الأثير أو على الشاشة الصغيرة أما إذا كان الانتقال عكسيا ويتعلق بالتاجر الكبير الذي أعلن إفلاسه وتم الحجز على بيته وانتقل

بأسرته إلى حي الفقراء فإن الموضوع هذه المرة أكثر تشويقاً وإثارة بل إن أهم عنصرى الدراما التي عني بهما كتاب التراجيديا الإغريقية وهما عنصرى الشفقة والخوف يتوفران بأكثر ما يتوافران في أي موضوع آخر ولا شك أن تمثيلية كهذه سوف تحتاج لعدد من مؤلفي الموسيقى يتعاونون فيما بينهم على تزويد العمل بما يحتاجه من كميات هائلة من الموسيقى الانفعالية التي تصاحب المشاهد المؤثر والتى تسيل لها دموع المشاهدين. وإذا كان هذا يحدث على مستوى المدن والأحياء فهو يحدث أيضاً على مستوى الأمم والدول إذ كثيرا ما يتجاور في عالمنا الفقر والغنى ونرى دولة مفرطة الغنى تتاخم دولة يعيش سكانها تحت خط الفقر. وما أكثر ما رأينا في عالمنا هذا الانتقال المبهج الجميل من حالة الفقر إلى حالة الغنى بفضل صدفة تاريخية أو ضربة من ضربات الحظ التي تصيب الشعوب بمثل ما تصيب

الأفراد كما رأينا أيضاً الانتقال المأسوى من حالة المجد والغنى إلى حالة الفقرة والمذلة يصيب بلادانا أخرى أجارنا وأجاركم ا . ولو أن كاتب التمثيلية الإذاعية قد اعتنى بالدور بدلاً من أعتنائه بالأفراد لما وجد منطقة في العالم تمده بمادة تكفي لعشرات المسلسلات مثل عالمنا العربي، فهو حالة مثالية ومادة خصبة وغنية لمثل هذا النوع من التمثيليات حيث يتجاور الفقر والغنى متحديا مواثيق الجامعة العربية ومشاريع العمل العربي المشترك وشعارات وحدة الدم والانتماء والمصير.

تستقبل لائحة الشهداء في الأرض المحتلة كل يوم المزيد من الشهداء.

ويحق لنا ونحن نرى هذه الانتفاضة الشعبية العارمة تدخل شهرها الثامن أن نسأل من أين يستمد

هؤلاء الناس الذين يقومون بها قدرتهم على الصمود والاستمرار ومن أين تستمد هذه النار المباركة وقودها لتبقى دائمة الاشتعال.

لقد ظنها الحاكم الصهيونى شيئاً طارئا لن يصمد أمام قمعه وجبروته سوى بضعة أيام واستخدم كل أساليب العنف والاجرام لإنهائها وإخمادها ولكن الانتفاضة لم تخمد أو تنطفئ لقد ازدادت قوة وتأججاً. استعان بالمراكز العلمية في أمريكا وخبراء مكافحة الثورات والانتفاضات وقمع إرادة الإنسان دون فائدة، لقد واصل أطفال الحجارة مسيرتهم المضمخة بالدم وعبير الأرض ولجأ الحاكم الصهيونى لضرب كل أنواع الحصار على المدن والأحياء الفلسطينية أطفأ الكهرباء وصادر الموارد الغذائية وأغلق المنابر الصحفية ومنع الصحافة الأجنبية من نقل أصوات أبناء فلسطين إلى العالم ومع ذلك واصلت النار التي أشعلها أبناء الأرض تأججها والحاكم الصهيونى يزداد

هوساً وجنوناً فلا يتورع عن ارتكاب أى جريمة بما في ذلك القتل والتعذيب والاعتقال بما في ذلك هدم البيوت على رؤوس أصحابها وتجنيد العصابات من بين المتعصبين الصهاينة لاغتيال أهل البلاد وتصفيتهم جسدياً دون فائدة أو جدوى. فالثورة الشعبية الفلسطينية ضد المحتل الصهيوني مستمرة. لقد أخطأت حسابات الحاكم الصهيونى مع هذه الانتفاضة بمثل ما سوف تخطئ حساباته التي أفهمته أنه يمكن أن يقتلع شعباً من أرضه ويهنأ بالاستقرار والبقاء بدلاً منه.

إن الانتفاضة مستمرة لأن الذين يقومون بها لا يستمدون قوتهم من خارج ذاتهم وقناعتهم وإيمانهم وإنما يستمدونها من أنفسهم ومن واقع انتمائهم للأرض والتصاقهم بها.

لقد قلبت الانتفاضة كل الموازين وأثبتت خطأ كل الحسابات القديمة.

كثيراً ما ترد كلمة " الثأر " على ألسنة الساسة والخطباء باعتبارها كلمة تعبوية يراد بها التحريض واستنفار معاني النخوة والشهامة لدى المواطن العربي حين الحديث عن صراعنا مع العدو الصهيونى.

إنها كلمة يستعملها الكتاب وترد على ألسنة الخطباء ويبالغ البعض في جعلها عنوان كتيب أو كراس واسم صحيفة أو رابطة أو جمعية ومعنى ذلك أنها تحظى بمعاملة مليئة بالإكبار والإجلال وكأنها أصبحت هدفاً وشعاراً لمرحلة من مراحل النضال.

وما أريد أن اقوله هنا هو اختزال هذا الصراع الحضارى الذي يشمل مختلف جوانب الحياة ويتصل بكل معانى الوجود والاستمرار قبل أن يتصل بمعانى التطور والنمو والبناء. واختزال هذا الصراع في

مفهوم متخلف مثل " الثأر " يضرب القضية المركزية لأمتنا أكثر مما يفيدها أنه ينقلها من مستوى الصراع المصري إلى مستوى المعارك القبلية عندما يكون تحقيق الانتقام وإنزال الأذى بالطرف الآخر هو الهدف والغاية.

إن ما نريده ليس انتقاما وليس ثأرا بائتا فقضايا التحرير الكبرى لا يحكمها منطق رد الفعل ولا يحركها مجرد إيذاء الآخر الذي أصابنا بالأذى ما يحكمها ويحركها أوسع وأشمل وأعمق من هذه النظرة الضيقة والأهداف التي تسعى لتحقيقها أهداف إنسانية تعود بالخير والنفع على المجتمع الإنساني بكاملة. إن بناء الدولة الفلسطينية الديمقراطية الذي تكافح من أجله منظمة التحرير الفلسطينية وترفعه شعاراً وتجعله هدفاً أعلى لمسيرتها النضالية إنما هو هدف إنساني وعمل يسعى لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني بمثل ما يسعى لتحقيق الأمن والسلام لكل

أبناء المنطقة إنه مشروع لا يهدف للانتقام وإنما يهدف إلى ترسيخ مبادئ العدل ويتبنى إنشاء دولة فلسطينية تتعايش فيها الأديان الثلاثة ويتحقق فيه الإخاء بين الناس إنه مشروع يقدم خدمة لليهود أنفسهم عندما ينقذهم من سيطرة نظرية عنصرية أعماها الحقد فصارت تعادى الحياة وتعادى الإنسان تمضي ضد منطق التاريخ وهي النظرية الصهيونية التي أساءت إلى البشر جميعاً بما فيهم اليهود وجلبت للعالم الكوارث والحروب.

وتبقى أهدافنا حتى ونحن نحرر أرضنا ونسترد حقوقنا وندافع عن تاريخنا أهدافاً إنسانية تروم الخير لكل الناس ولذلك فإن كلمة " الثأر " كلمة لا معنى لها في قاموس النضال والثورة.

برغم ما يملأ الدنيا من نزاعات وصراعات وحروب، وبرغم ما ترويه لنا كتب التاريخ من أخبار الفواجع والجرائم التي تفوق الخيال فإننى ما زلت لا أستطيع أن أستوعب أو أفهم أو أدرك الدافع أو الباعث الذي يجعل إنسانا جبل من ذات العناصر التي جبل منها البشر يتسلل إلى مقهى أو مستشفى أو مخبز أو سوق شعبي ليخبئ في صناديق القمامة قنبلة موقوتة تحمل لمرضى المستشفى وزائريه وزبائن هذا المخبز أو المقهى أو السوق الهلاك والموت والدمار.

ولعل ما يزيد أمر هذه الجرائم هولا ورعبا أنها لا تحدث بين مواطن ومحتل أجنبي وإنما تحدث بين أبناء الوطن الواحد والدين الواحد والانتماء القومي الواحد ويزيده هولا ورعبا أن ترى مسلما يقوم به لإيذاء عرب مثله بحجة أنه يدافع عن قيمة دينية أو هدف وطني وينسى أن عملاً شنيعاً مثل هذا

إنما هو إهدار لكل القيم الدينية التي استهدفت أول ما استهدفت تأكيد إنسانية الإنسان والانتقال به من طور البدائية والتوحش والجهالة إلى طور التهذيب والتمدن والرقي، إن سيدنا محمدا لم يبعث فينا إلا من أجل إتمام مكارم الأخلاق كما يقول الحديث الشريف وإن الدين الإسلامى عندما يأمرنا بأن نجادلهم بالتي هي أحس إنما يرسي مبدأ من أكثر المبادئ رسوخاً في الحوار الديمقراطى والسلوك الإنسانى النبيل وعندما يأتى متعصب أعمى يمتلئ جهالة وتوحشا ليقوم بعمل إجرامى ضد مسلمين مثله فإننا يجب أن نستنفر كافة الأجهزة في حياتنا دينية وتربوية وإعلامية كي تستنكر هذا السلوك وتدين هذا العمل وتدق نواقيس التحذير والخطر لكي لا يصبح هذا العمل مبرراً في عينى المسلم الصغير في السن قبل المسلم الكبير.

ولذلك فإننى ما زلت غير قادر على أن أتصور أن إنسانا له ملامح البشر ومظهرهم يمكن أن

يقدم على مثل هذه العمل الشائن الكريه الذي يذهب ضحية أناس أبرياء. إنه حتى وإن ارتدى أردية البشر فإن كمية الظلام في قلبه قد حولته إلى كائن مشوه لا ينتمي إلى البشرية إلا بالاسم.

إن من يقوم بمثل هذا العمل سواء تحجج بقيمة دينية أو بمبادئ وطنية إنما يكذب علينا ويضللنا بمثل ما يكذب على نفسه ويضللها لأن مثل هذه الأعمال الإجرامية لا يمكن أن تخدم قضية أو تفضي إلى غاية لها معنى. إن أحداً لا يفعل ذلك إلا إذا كان يحمل تكوينا نفسياً شاذاً وميلا طبيعياً للجريمة ولا شك أنه لقي من يستفيد منه ويستغل ميوله الإجرامية لخدمة أغراض تتناقض كل التناقض مع المبادئ الدينية والأهداف الوطنية التي جعلها غطاء لجرائمه.

إذا كان أسلوب تعاملنا مع الوقت ينبئ قبل أى شيء آخر بمدى اقترابنا أو ابتعادنا عن روح العصر وحضارته الجديدة فإن أسلوب تعاملنا مع اللغة يأتي في مرتبة ثانية لأسلوب تعاملنا مع الوقت.

وإذا كان عدد من المفكرين العرب يؤكدون على وجود إشكالية كبيرة في مجال استخدامنا للغة فإن جوانب كثيرة من هذه الإشكالية قد تم تناولها من طرف الباحثين والكتاب وأريد هنا أن أشير إلى نقطة محددة تتصل بالألفاظ التي نستعملها دون كبير اهتمام بدلالاتها ومعانيها.

ويمكن في هذا السبيل الإشارة إلى الخطاب السياسي العربي فهو برغم ماله من تأثير وفعالية باعتباره يأتي من مواقع الحكم والقيادة ويهيمن بقوة على مختلف جوانب الحياة الأخرى ويهمل ويهمش كل تأثيرات أخرى للخطاب الأدبي والفكري أو العلمي أو الثقافي هذا الخطاب الذي استفرد وحدة

بالساحة ما زال في حقيقته خطابا متخلفا ضعيف البنية والتكوين ويكفي أن يحضر المرء مهرجانا خطابيا سياسياً واحداً ويتأمل اللغة التي يتم استخدامها ليكتشف خواء هذه اللغة والهوة الكبيرة بين الألفاظ ومعانيها حيث لا قيمة لما تعنيه الكلمات فالحديث عن زيارة يقوم بها الحاكم إلى إحدى القرى يوازي الحديث عن إنجاز حضاري مثل غزو الإنسان للفضاء وإذا كان الخطاب الرسمي قد صار قديما ومهترئا ومتخلفا عن روح العصر فإن الخطاب الآخر الذي تقول به مؤسسات شعبية وشبابية وطلابية تضع نفسها في مواجهة الناطق الرسمي هو أيضاً خطاب عامر بالعيوب، انظر مثلاً إلى تعبير نسمعه كثيراً في مهرجاناتنا الشبابية والطلابية تعليقاً على التردي الذي وصل إليه الواقع العربى وهو " إننا نرفض هذا الواقع "، وهو تعبير مضلل لا يتفق مع طبيعة الأشياء فالإنسان يرفض الاستسلام للواقع

أو يرفض أن يستجيب لما يريده الواقع ولكن لا يستطيع أن يرفض الواقع وهذا هو على أغلب تقدير ما أراد أن يقوله ذلك المتحدث، لقد أراد أن يبدي تحديه لمعطيات الواقع وعدم استسلامه لها ولكن أسلوب تعامله مع اللغة كان أسلوبا خاطئا فجاء يقول إننى أرفض الواقع وكأنه يريد أن يحقق إنجازه في الهواء وليس فوق أرض الواقع الذي ينبغى دراسته وفهم آلياته ومن ثم السعى لتطويره أو تغيير معطياته لتحقيق نتائج تخدم قضية الرقي والتقدم ولا شك أن تغيير الواقع لا يكون ممكنا إلا بالاهتداء إلى الجوانب الإيجابية في هذا الواقع واكتشاف بذور التغيير والتحول التي يمكن استخدامها كأرضية للانطلاق نحو بناء البديل الذي نطالب به وإنجازه.

برغم أننى أميل إلى استعمال تعبير " الوطن العربى " كبديل عن التعبير الأكثر شيوعاً وهو " العالم العربى " فإن ذلك لا يعني أنني أنفر من هذا التعبير أو أخاصم القائلين به. لقد وصل بعض الكتاب إلى صيغة للتعامل مع التعبيرين كما فعل الكاتب المغربى المعروف محمد عابد الجابرى الذي يقول : العالم العربي عندما يريد وصف حالة تتصل بالوضع الراهن للأقطار العربية ويقول الوطن العربى عندما يتناول الحديث آفاقاً مستقبلية. إن هناك تباينا في المعنيين كما يراه الكتاب الفاضل ومع ذلك فإنه يمكن القول إن تعبير الوطن العربى تعبير حاسم جازم.

يعنى عندما نقوله إننا نعتبر هذا الوطن وطنا واحداً وإن حالة تقسيمه إلى أقطار إنما هى حالة جاءت بفعل ظروف تتصل بالتاريخ الاستعمارى للمنطقة وإن الوضع الطبيعى هو أن يعود هذا الوطن العربى وطنا واحداً كما كان وكلمة " العالم العربي "

في رأيي لا تلغي هذا المعنى ولا تؤكده إنها كلمة أكثر شمولاً واتساعاً وهي تعني فيما تعنيه غزارة الإمكانيات وتنوعها. تعني التعدد والغنى إنها تحمل إشارة إلى اتساع وامتداد هذه المنطقة أكثر مما تحمل إشارة إلى تقسيمها أو تمزقها ولا أدرى من أين جاء هذا التعبير أو كيف جاء ومنذ متى صار هذا الجزء من العالم عالما ولكن قائله حتى لو أراد به سوءاً فإنه لا يستطيع إلا أن يقول قولاً يتفق مع وفرة إمكانيات الوطن العربى وأهميته الاستراتيجية. إن الإنسان لا يستطيع استعمال كلمة مثل " العالم " إلا مع شيء يتفق وما تحمله هذه الكلمة من معاني القوة والاتساع حقاً إن تعبير " العالم العربى " لا يرقى إلى مستوى اللغة التي تكون حافزاً ودافعاً يشحذ الهمم كما هو الحال مع تعبير " الوطن العربى " كما أن طموحنا لتحقيق وحدتنا العربية وبناء دولتنا القومية يجعلنا نتعامل بحاسية خاصة مع بعض التعبيرات التي

نستشف من ورائها أنها تنكر علينا هذا الطموح ولكن تعبيرا مثل " العالم العربى " يجب أن يبقى دائما في سياقه الصحيح إشارة إلى مواقع القوة والمناعة أكثر مما هو اعتراف بواقع التجزئة والتمزق.

- ٥٠ -

ثمة مظهر من مظاهر التخلف لا يرد ذكره كثيراً في البحوث والدراسات التي تتناول مظاهر التخلف وتناقش أسبابه ودوافعه ونتائجه وعوامله، إنه ذلك الرجل الذي يؤدى عملاً يتناقض كل التناقض مع قناعاته في الحياة إنه في رأيي مظهر صارخ من مظاهر البؤس الذي تعيشه مجتمعات التخلف والاستبداد حيث تضيق مجالات الاختيار وتنتشر تجارة الأقنعة التي يرتديها البشر فوق وجوههم خوفاً وتقية وطلبا للرزق والأمان.

وأنا لا أقصد هنا ذلك العامل البسيط أو الموظف الصغير الذي يجد نفسه مسوقاً للعمل في مجال لا يتفق مع افكاره أو معتقداته فهذا يحدث حتى مع المجتمعات التي حققت رقيها وتطورها ودون أن تترتب عليه مسئوليات كبيرة تؤدى إلى انهيار المجتمع. إنني هنا أتحدث عن المناصب القيادية بالتحديد إذ ما أكثر ما نلتقي في هذه المجتمعات المتخلفة بذلك الرجل الذي يحتل موقعاً فكرياً أو سياسياً أو ثقافياً ويدير مؤسسة اقتصادية أو تربوية أو إعلامية ويتولى تنفيذ سياسة هو أول المتناقضين معها حيث عليه أن يدافع عن أفكار تختلف عن أفكاره ويسعى لتطبيق برامج عمل لا يؤمن بجدواها ومع ذلك يسعى بحماس لتطبيقها تنفيذاً لأوامر تصدر إليه واستجابة لما تريده إرادة أعلى من إرادته ويتربع وسط أجهزة الإعلام مدافعا عن هذه السياسة محاولاً إقناع الآخرين بها وقد يدخل في نقاش وخصام مع

المنتقدين لها مع أنه في قرارة نفسه يتفق معهم ويؤمن بصواب أقوالهم ولكنه سجين منصبه الكبير الذي يحرص على الاحتفاظ به.

إن مثل هذا النموذج ينتشر كثيراً في بلادنا ونحن نعرفه لأننا كثيراً ما نلتقي به في حالة تلبس عندما يكشف في مجلس خاص رأيه الحقيقي الذي يخالف السياسة التي يسعى لتنفيذها وترويجها وكثيراً ما رأينا تغييراً في الحكم ينتج عنه تغيير جذرى في السياسة العامة فإذا بنفس العناصر التي قامت بتنفيذ السياسة القديمة هي التي تتولى تنفيذ السياسة الجديدة التي تناقضها دونما حرج أو إحساس بالألم وأعتقد أن هذا الرجل الذي يرتضي العمل في ما يتناقض مع قناعته هو الخميرة الأساسية لما نراه ينتشر في مجتمعات التخلف من فساد وانحراف.

إن هذا الرجل الذي عمل ضد قناعاته لا بد أن يجد وسيلة لتحقيق المصالحة مع نفسه وإلا سقط ميتا

نتيجة القهر والإحباط والتنكر لذاته الحقيقية وهذه المصالحة غالبا ما تتحقق عن طريق الحصول على منافع شخصية من عمله العام وبما أنه يخدم سياسة لا يؤمن بها فلا بأس من أن يقايض هذا الإيمان ببعض المنافع الخاصة، ومن هنا تأتي السرقة والرشوة وفساد الذمة والصفقات المشبوهة كسبيل وحيد لتحقيق المصالحة مع الذات.

- ٥١ -

ليس غريباً في ظل الاستبداد أن نرى أصحاب المناصب الكبيرة يؤدون أعمالاً تتناقض مع قناعتهم وينفذون سياسة هم أول المعارضين لها وأن نرى فئات الشعب تخرج في مظاهرات تأييد ومناصرة لكل إجراء يستهدف قمعها وقهرها وإفساد حياتها والإضرار بمصالحها وبمثل ما يصبح الرجل القيادى الذي يؤدى عملا يتناقض مع آرائه وأفكاره خميرة

للفساد والانحراف فإن الجمهور الذي يخرج في مظاهرات التأييد لخانقيه ومستعبديه إنما هو تربة صالحة لكل أنواع الكوارث والهزائم والنكبات.

إن بداية كل انهيار سواء كان على مستوى الأفراد أو مستوى الجماعات والشعوب هو أن يفقد الإنسان احترامه لذاته لأن من يفقد قيمة أساسية كاحترام الذات يفقد كل حافز للدفاع عن أية قيمة أخرى في الحياة. إنه كالجسم الذي فقد مناعته فصار فريسة للجرائم والأمراض ويتحول المجتمع في ظل الاستبداد وقهر الإرادة الإنسانية إلى مرتع للانحرافات وأمراض التسيب والتواكل واللامبالاة ويتم تكريس البؤس والتخاف والتبعية وتضيع على الأوطان فرص اللحاق بمجتمعات التطور والتقدم وحضارة العصر وهكذا تاتى خسارة المعارك والحروب والفشل في مواجهة الأعداء والابتلاء بالهزائم والنكبات محصلة طبيعية لواقع القمع

والإذلال. إنك لا تستطيع أن تحقق النصر بمواطن مهزوم ولا تستطيع أن تصنع للوطن كبرياءه وكرامته بشعب من الأذلاء.

إن الوطن العربي لكي يستعيد قدرته على تحقيق الانتصار لا بد أن يسعى لتحقيق هذا الشرط الأساسى من شروط بناء الحضارة وتنمية الأوطان والمجتمعات وبناء الإنسان القادر على تحديات القرن الواحد والعشرين. وهذا الشرط هو أن يستعيد المواطن العربي احترامه لذاته، إن واقع المذلة والمهانة لن يقود إلا إلى مزيد من الإذلال والاحتقار وقديما قال شاعرنا العربى : " من يهن يسهل الهوان عليه " ولم يقل من يهون يسهل عليه تحقيق الانتصارات أو بناء الأوطان أو صنع التقدم أو قهر الأعداء.

إن واقع التمزق الذي تعيشه الأمة وظهور هذه الكيانات الصغيرة المتفرقة هو الذي أفرخ الكثير من

الظواهر الطارئة على تاريخنا. إن السعى لبناء وطن كبير عزيز منيع سيكون سبيلنا لبناء مواطن كريم عزيز لا يفقد احترامه لنفسه ولا يمنح حياته ومقدراته لقمة سائغة للمستبدين الصغار.

- ٥٢ -

لا شك أن وجهه صار مألوفا لديك لكثرة ما التقيت به في أكثر المواقف تأزما وعصبية !

قد يكون صغيراً أو متقدما في السن، قد يرتدى بدلة مدنية أو بدلة عسكرية، قد يتكلم العربية أو إحدى لغات البشر الأخرى، قد يكون داكن السمرة أو داكن الحمرة، ولكن في وجهه علامات لا يخطئها البصر ؛ عقد حاجبيه وزم شفتيه وعلق رأسه في السماء حتى ظهر لأنفه ظل ينطرح فوق الأرض، وأرسل إليك من عليائه نظرة تحملك وحدك مسئولية ما يقع في الدنيا من جرائم النهب والاغتصاب

وحروب العرق والدين بين أهل السند والهند والمجاعات التي يعيشها الأحباش والبنغال. وما إن تراه حتى تدرك أن ا قد ابتلاك به وأنه لا نجاة اك من لحظات بؤس ونكد لأنك تعرف أمثاله ممن يدخرون حقداً على البشر ويمتلئون بعقد السادزم وايذاء الأخر ين، وها أنت تسقط الآن في شباكه فلا حول ولا قوة إلا با ، وهو يعرف كيف يختار أماكن العمل التي تتيح له فرص التنفيس عن أمراضه النفسية، ستلقاه واقفا بانتظارك أمام المحاكم ومراكز الشرطة ومصارف القرض العقارى. أما أفضل الإمكان بالنسبة له فهي الموانى والمطارات ونقاط الحدود. وبرغم وفرة الناس الطيبين في هذه الأماكن إلا أن سوء الحظ قد يسوقك إليه حيث يقف هناك ينتظر ضحاياه عند مفترق الطرق في تلك المنطقة الواقعة بين عالمين حيث يتضاءل نفوذ السلطات الأخرى فيتسلل هو ليبسط نفوذه ويبني لنفسه بابا

عالياً إذ إن أولى مزايا هذا المكان أنه يتيح له فرصة لممارسة الهيمنة والسلطان برغم ضآلة مركزه وقلة شأن وظيفته وثاني هذه المزايا أنه يلتقي بأناس مهما كبر مركزهم فهم هنا. إما خارج بلدانهم وإما خارج مناطق نفوذهم. إنهم دائما في موقف ضعف، وهو في موقف قوة، وثالث هذا المزايا أن هذا المكان بعكس الأماكن الأخرى التي قد يجد فيها فرصة لممارسة القهر والهيمنة على عدد محدود وفئة معروفة من الناس كالسجون وإصلاحيات الأحداث فهو هنا يلتقى بعدد لا ينتهى من البشر على مختاف فئاتهم ومقاماتهم يتجددون بتجدد الأيام ويمنحونه فرصة نادرة لاستعراض عقده ومركبات نقصه. وأكبر هذه المزايا أنه هنا ومهما أساء استعمال صلاحياته فإن لديه من الذرائع والحجج ما يمكن أن يبرر به أية جريمة يرتكبها وذلك باسم حماية الوطن من الإرهابيين والمهربين والمجرمين الهاربين من بلادانهم وهو يعتبر

كل إنسان يلتقى به عضواً في إحدى العصابات الدولية التي تشتغل بالنهب والاغتصاب والتهريب والقتل !

- ٥٣ -

يكتسب كلام الناس في مجتمعات الفراغ والوقت الضائع والخمول العقلى قيمة زائفة لا علاقة لها بقيمته الحقيقية فهو منذ البداية كلام لا قيمة له ولا معنى، إن الناس في هذه المجتمعات ونتيجة لعدم وجود شيء أفضل يفعلونه يقولون ويقولون ويقولون إلى حد أن يصبح الكلام بديلاً للعمل والإنتاج والفعل الإنسانى المثمر النافع.

وبعيدا عن مجالس العلم والثقافة إن وجدت فإن ما يقولونه في هذه المجالس الأخرى التي تنتشر كالطفح فوق وجه مريض غالباً ما ينحى منحى شخصياً خالصاً ليتناول سلوك أناس آخرين وأفعالهم

وأقوالهم وحيواتهم، وقد لا يكون للكلام الذي يقولونه علاقة بالحقيقة ولكنه يكتسب قوة أكثر من قوة الحقائق ذاتها ويصنع هذا الكلام قائمة من المحرمات لا علاقة لها بالمحرمات التي تفرضها الشرائع والقوانين فهى محرمات أخرى تصنعها البطالة والفراغ ويصنعها خواء الكفر وخواء الروح. ومع ذلك فإنها تكتسب قوة وهمية لدى الناس بحيث يرهبونها ويخشونها أكثر من خشيتهم للشرائع والقوانين ويتحول هذا الكلام الذي لا قيمة له ولا معنى إلى حدود وسدود وعقبات تعيق أي ابتكار أو اجتهاد أو تجديد وتحارب كل المبادرات الجريئة والأفكار الجديدة التي لا تحقق المجتمعات تقدما بدونها. وما إن يفكر أى إنسان في الخروج عن السائد والمألوف مهما كان هذا السائد والمألوف مخالفاً للتقدم وروح العصر حتى يتحول إلى مضغة في الأفواه العاطلة وضحية من الضحايا التي تسحقها

طواحين الكلام وكثيراً ما يتحول هذا الكلام في مجتمعات التزمت والانغلاق إلى سبب من أسباب الفتنة التي تلحق الضرر والأذى برجال أبرياء ونساء بريئات ولذلك ينتشر الذعر في هذه المجتمعات من كلام الناس وتنتشر أمراض التواكل والسلبية ويغيب كل حافز للتجديد والابتكار لأن كل إنسان يتهيب الأقدام على عمل يثير حفيظة الآخرين ويطلق ألسنتهم بجارح الكلام الذي ينال سيرته ويدمر حياته العائلية أو الوظيفية.

والأدهى من ذلك أن هذا الحديث لا يقتصر على الأندية والمقاهي والحلقات التي تعقد أمام الدكاكين أو تحت الأشجار في القرى والأرياف، ولكنه في مجتمعاتنا صار يشمل مواقع العمل والإنتاج حيث تتحول جلسات القهوة والشاي في هذه المواقع إلى أفواه تطلق الشائعات وتمضغ سيرة الآخرين وتعيش على الوشاية والنميمة وتستبيح أسرار الناس

وتقلب غرف نومهم وأغلفة مخداتهم ودواليب ملابسهم بحثا عن قشة تصنع منها مركباً تحمله بالأقوال والشائعات.

ولعل هذا الذي جعل نفسه أداة للنيل من الآخرين يدرك تمام الإدراك أنه سيكون هو الآخر ضحية لأقوالهم ولذلك فهو ينتقم لنفسه قبل الأوان. لقد أصبح هذا الكلام عملة يتداولها الناس في السوق وعني ذلك أنه لا حصانة لأحد ولا أمان له فليدخل المزاد مع الداخلين، وهو داء عرفته كل المجتمعات في مراحلها البدائية لأنه يأتى نتيجة الجهل والخواء الفكري بمثل ما يأتي نتيجة البطالة العلنية أو البطالة المقنعة، وهو يأتي أيضاً نتيجة غياب الأهداف الكبيرة التي يسير خلفها الناس بمثل ما يأتي نتيجة غياب التعبئة الروحية والتوعية الفكرية وضعف البرامج التي تعني بالعلم والثقافة وإغناء وجدان الناس

بالآداب والفنون التي نستهين بها ولا نعرف قدرها أو قيمتها..

إن هذا الكلام صناعة أذهان لا تملك المقومات التي تؤهلها للتفكير السليم. أذهان تعودت على الكسل والخمول فلم تجد عملاً يصلح لها أو تصلح له سوى اجترار الأحاديث البدائية التي تنهش سيرة الآخرين فهي أحاديث لا تحتاج إلى علم أو موهبة أو ذكاء ولا تقتضى جهداً أو بحثاً أو تفكيراً أو عناء. إنها مجرد وسيلة سهلة ورخيصة لتزجية أوقات الفراغ وشغل الأذهان العاجزة عن الإبداع والتألق والابتكار.

ولكن هذا العصر الذي تميز بإنجازات العقل واعتماد العلم منهاجاً للحياة لم يعد يتيح مكانا لهذه الأذهان الخاملة الكسولة المريضة وسيرمى بها بعيداً بمثل ما يرمى السيل الهادر بالقش والنفايات.

تتعدد أسباب الفساد الذي ينتشر في مجتمعات التخلف وسوء التخطيط والفوضى الإدارية وإذا كان غياب الرقابة الشعبية واختفاء المنابر الحرة وضعف المجالس التشريعية أو عدم وجودها تشكل بعض هذه الأسباب التي يسهل التعرف عليها فإن هناك سببا آخر لا يظهر بمثل هذا الوضوح ولكنه أكثر تمركزاً وتأصلاً في هذه المجتمعات وأكثر تأثيراً في إفساد الذمم والضمائر.

وهو ينتج عن غياب القواعد التي يتولى بها الناس المناصب والمسئوليات الحكومية ولذلك فإن الإنسان الذي تقفز به ظروف الفوضى والتخلف وأمراض المحاباة والمحسوبية إلى منصب ليس مؤهلاً له ولا يتكافأ مع خبرته وتجاربه وإمكاناته الوظيفية ومستواه الثقافي غالباً ما يكون خامة لفساد الذمة وعنصرا أساسياً في انتشار أمراض الرشوة

والغش والصفقات المشبوهة وبعيداً عن الكوارث التي يصنعها هذا الخلل الذي يبيح إعطاء نتائج وخيمة على الحياة العامة وما يحدث من تخريب وتدمير للمؤسسات والإدارات وما يشيعه من روح الإحباط والتذمر لدى الكوادر المؤهلة والمثقفة بعيداً عن كل ذلك أو بالاضافة إلى كل ذلك فإن هذا الذي يأتى من الظلام ليصبح فجأة مسئولا كبيراً دون علم أو خبرة أو دراية ودون جدارة أو استحقاق سيجد نفسه مدفوعاً إلى الغش والسرقة والدخول في صفقات مريبة مع السماسرة والوكلاء والأجانب بحثاً عن مزايا لنفسه ومكتسبات يدخرها لأيامه المقبلة فهو ما إن يتولى منصباً لا يستحقه حتى يدرك أنه اغتصب هذا المنصب اغتصابا وأن أية قيمة يحققها إنما تأتى كنتيجة لهذا المركز الذي يحتله ويدرك أيضاً أنه ما إن تنتهي مدة استيلائه على هذا المنصب حتى يعود كما كان قبل صعوده إليه مجرد إنسان خال من

الموهبة والكفاية ومحط سخرية الآخرين واستهانتهم به، ولذلك فهو تأمينا لنفسه واحتياطا لما سيلاقيه من مصير بعد ذهاب الوظيفة يلجأ إلى تكوين ثروة عن طريق الغش والسرقة والرشوة والابتزاز واستغلال النفوذ تكون له قوة بديلة لقوة المنصب تستطيع أن تمده بما يحتاجه من حماية وتقدم الغطاء اللازم لضآلته وضحالة فكره أمام الناس أنه يعكس إنسانا آخر يأتى إلى المنصب من موقع القدرة والكفاية مدركاً بأنه يخدم المنصب بأكثر مما يخدمه المنصب، وأنه عندما جاء إليه إنما جاء يحمل معه قيمته التي يستمدها من علمه وقدراته وكفاءته وهى أشياء ستبقى معه سواء بقي في المنصب أو تخلى عنه ولذلك فهو لا يحتاج إلى البحث تعويضاً لغياب المنصب.

لقد كان الخليفة عمر بن الخطاب حكيما وعظيما عندما قال: " نحن لا نعطي المناصب لطالبيها " لأن الذين يتعففون عنها هم الأولى بها، فهم

أكبر منها وأقدر على مقاومة إغرائها وعندما تأتى لا يفرحون بها وعندما تذهب لا يتأسفون عليها أو يتحايلون للبقاء فيها أو يحتاطون بالغش والفساد على مواجهة المصير الذي يلقونه بعد ذهابها لقد جاءوا إليها كباراً وذهبوا عنها كباراً فالفرق شاسع بينهم وبين أولئك الصغار الذين يذلون أنفسهم في سبيل الحصول عليه وعندما يحصلون عليه يلجأون إلى كل الحيل والوسائل وأساليب التملق والنفاق للاحتفاظ بها ولا يتركونها إلا بعد أن فسدوا وأفسدوا الذمم من أجل مال يحميهم ويدفع عنهم سخط الناس بعد ذهابها.

تغيب القواعد والتقاليد وتسطو المصلحة الشخصية على حصة المصالح العامة في خير المجتمع وثرواته وتضيع على مثل هذه البلاد كل فرصة لاقتحام آفاق التقدم والتطور وصناعة الغد الأبهى الذي تحلم به.

إذا كانت المكالمة الهاتفية قد جاءت لتأخذ مكان الرسالة الشخصية فليس معنى ذلك أنه قد حان الوقت لإرسال جميع موزعي البريد إلى التقاعد الإجباري لقد تضاعفت معظم أعمال مكاتب البريد بسبب المطالب والالتزامات التي تفرضها الحياة العصرية وصار التعامل بالرسائل بديلاً للمشاوير الخاصة التي تقوم بها للمكاتب والإدارات والمصارف والشركات ووصلت بعض البلاد المتقدمة إلى نظام يلغي المراجعات الشخصية إلا في حالات نادرة لأن كل شيء صار يتم عن طريق البريد والمراسلات تسهيلا للإجراءات وتوفيراً للجهد والوقت وتوفيراً أيضاً لما ينتج عن هذه المراجعات الشخصية من نفقات ومصاريف إذ إن المواطن الذي يذهب بسيارته على سبيل المثال لمتابعة إجراء يخصه بأحد المكاتب الحكومية التي تتعامل مع المواطنين سوف يصرف

ما لا ينفقه في وقود واستهلاك السيارة وعلاوة على الوقت والجهد الضائعين فهو سوف يضيف زحاما إلى زحام الشوارع والطرقات وسيخلق زحاماً آخر مع غيره من المراجعين عند أبواب هذا المكتب الحكومي ويسبب ارتباكا يعطل الموظفين عن القيام بأعمالهم ولعلهم حسبوا أيضاً ما سوف يحدثه الوقود المحترق في سيارته من تلوث البيئة ولذلك فقد وجدوا أن قضاء هذا المراجعات بالمراسلة سيكون أكثر نفعا وجدوى من الناحية الاقتصادية، وقد تقضى عمراً كاملاً وأنت تتعامل مع شركة تستثمر لك مدخرات بدون أن تذهب إلى مقرها أو تلتقي بأحد من عمالها وأصحابها فكل شيء يتم بالبريد بما في ذلك إرسال الصكوك والمستندات المالية ولا شك أن بريدا يتولى كل هذا المهام لا بد أنه بلغ منتهى الدقة في أدائه وخدماته وهو كذلك فعلا في بلاد العالم المتقدم إلى حد أننا نسمع أحيانا في الإذاعات أو نقرأ في

الصحف انتقاداً لاذعا لمكاتب البريد لأن الرسالة التي كان مقرراً لها أن تصل عند الساعة الثانية عشرة وصلت بعد هذا الوقت بساعة أو ساعتين ويعتبرون ذلك تقصيراً كبيراً ودليلاً على تدهور الخدمات البريدية وسوئها.

وهناك قضايا ترفع ضد البريد للمطالبة بالتعويض عن الضرر الذي ينتج عن وصول الرسالة متأخرة عن موعدها ساعة أو ساعتين ولا أدرى ماذا سيكون عليه حجم القضايا لو أننا قررنا في الوطن العربى أن نحاكم مكاتب البريد عما يحدث من تأخر أو ضياع لرسائلنا ونطالب بتعويض عن ذلك فلا شك أن عدد القضايا سيكون بعدد الرسائل التي نتبادلها كل يوم وحجم التعويض سيحتاج إلى جهود كل المصانع التي تصك العملات في الدنيا لتعمل ليل نهار كي تنتج ما يكفي من النقود وباعتبار أن ذلك شيء مستحيل فإننى أقترح بدلاً من رفع القضايا ضد البريد

أن نقيم حفل تكريم يشمل الوطن العربى كله لكل رسالة تصل في موعدها وتمنح أوسمة للعاملين بكل مكتب بريد تظهر فيه هذه المعجزة أما فيما يخص تعاملنا مع المكاتب الحكومية والمؤسسات الرسمية فإنه حتى لو صنعت لنا اليابان عقلاً آليا يتولى إدارة شئون البريد وتصريفها بحيث صار قادراً على تلبية احتياجات العصر فستبقى لنا مشكلة مع ذلك الموظف الصغير الذي قضى جزءا من عمره جالسا خلف شباكه يستقبل المراجعين والمتعاملين مع إدارته ليقول لهم ساخطا غاضبا زاجراً ناهيا تعالوا غداً، ويحس بعدها بالراحة والرضا لأنه أظهر أمام هؤلاء القوم تفوقه وامتيازه كيف نستطيع حرمانه من هذه المتعة الصغيرة البسيطة التي يستمتع بها كل صباح وقد حرم المسكين من متع الحياة الأخرى ولذلك فإنه من الحكمة والإنصاف أن تبقى الأمور على ما هي عليه الآن.

مهما كان نظام الحكم مخالفاً لتقاليد الشورى الإسلامية أو لمفاهيم الديمقراطية الحديثة، فأباح وجود رجل واحد تتجمع في يده كل السلطات كما هو حال معظم بلدان العالم الثالث بحجة الظروف الاستثنائية التي تمر بها البلاد والتي تقضي الحسم والجزم ولا تسمح بترف الاختلاف والجدل والخصومات السياسية فإن هذا النظام غالباً ما ينتهي إلى السقوط في الفوضى التي أراد أن يحاربها ومهما كان هذا الحاكم الفرد صادقاً في توجهاته التي جاء بها إلى الحكم والتي تنشد الخير والسعادة للمواطنين فإنه لن يستطيع دائماً أن يقود سياسة بلاده بوحي من هذه الآراء والأفكار التي جاء بها وسيجد نفسه على أغلب الأحوال يمضي بالبلاد في طريق يناقض ما يؤمن به من آراء وأفكار وما يراه من مفاهيم وقناعات وما

أعلنه في بداية حكمه من برامج إصلاحية ونهضوية وبرغم أن رجلا مثله يأبى تقديم تنازلات للقوى السياسية داخل وطنه التي تنشد المشاركة في الحكم والقرار السياسي إلا أنه يضطر إلى تقديم تنازلات لقوى أخرى تضمن له البقاء سواء كانت قوى دولية أو أجهزة صنعها بنفسه لحماية نظامه وحراسته فسقط رهينة لها وسجين ممارساتها وأطماعها. إنه كالرجل الذي يركب قاربا في وقت الإعصار وهيجان البحر إذ ليس المهم حينئذ الوجهة التي يتجه إليها القارب وإنما المهم هو أن يبقى هو جالسا فوق القارب حتى لو حمله التيار وسار به في الاتجاه المعاكس، ولهذا فإن المحافظة على الحكم تصبح لدى هؤلاء الحكام أهم من تحقيق الغايات التي جاءوا لتحقيقها عندما بدءوا الحكم.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن المسئولين في الدولة التي تتيح المشاركة وتعدد المسئوليات

وفصل السلطات وحرية التعبير سيكونون بمنجاة من الضغوط التي تجعلهم يتنازلون عن آرائهم وأفكارهم التي جاءوا بها ويتجهون وجهة مخالفة لبعض الشعارات التي أوصلتهم إلى الحكم أن هذا يحدث لهم أيضاً ولكن يحدث بدرجة لا تصل إلى أن يتنكروا تنكراً كاملاً لكل مبادئهم وأفكارهم لأن التغيير عندما يصل إلى هذا الحد يقتضي عندئذ عناصر جديدة تأتي بمفاهيم وقناعات تتفق مع طبيعة المرحلة بعكس الانظمة الفردية التي تتقلب يساراً ويمينا دون أن يؤثر هذا في حكامها الذين لا ينتهون إلا بالعنف أو الوفاة.

إن نظام الحكم الفردي حتى وإن أباحت وجوده بعض الظروف الاستثنائية وفترات الانتقال التاريخية بالإضافة إلى واقع الجهل والفقر والتخلف هو نظام ينتمي إلى الماضي إلى ما قبل ظهور الأفكار التنويرية ورسوخ المفاهيم الجديدة التي

أصبحت ملمحا أساسيا من ملامح هذا العصر والتي تدعو إلى العدل والمساواة والحرية وفصل السلطات وإلغاء الوصاية على عقول وأفكار البشر.

ولقد تشابكت العلاقات الدولية وتداخلت المصالح والمنافع والاهتمامات وتعددت مطالب الحياة العصرية وصارت أكثر تعقيداً وتركيباً وشمل التطور بدرجات متفاوتة كل شعوب الأرض ولم يعد ممكنا أو جائزاً لأي فرد مهما كانت عبقريته أن يتولى وحده تصريف شئون قرية صغيرة فما بالك بتصريف دولة حديثة تنتمي ـ شاءت أم أبت ـ إلى حضارة القرن الواحد والعشرين، بل لم يعد ممكنا بمفرده ودون مشاركة من بقية أفرد الشعب قيادة هذه الدولة.

وليس شرطاً أن تلجأ شعوب العالم الثالث لنقل تجارب الحكم في الدول المتقدمة ونسخها كما هي، ولكن الضرورة تقتضي وجود صيغة يتمكن بها العقل الجماعي للشعب أو العقل الجماعي للأمة من

المشاركة في تصريف الأمور وإدارة الدولة وتحقيق التقدم وبناء المجتمع الذي يسعى لتأكيد حضوره في عصر ثورة العلم وإنجازات العقل والسفر إلى النجوم.

- ٥٧ -

كانت الحرب الأهلية المهلكة قد تفجرت عنيفة قوية شرسة بين الطوائف والفئات السياسية المتحاربة في لبنان تزرع الموت وتصنع أنهار الدم وتطلق غربان الشؤم والخراب في سماء ذلك الوطن الجميل في حين ظلت مكاتب السياحة اللبنانية المنتشرة في عواصم العالم تواصل ـ برغم الحرب ـ توزيع نشراتها الدعائية المطبوعة في وقت مضى والتي تدعو الناس إلى زيارة لبنان مهد الحضارات وبلد الشموخ والجمال وأشجار الأرز حيث يسود الهدوء

والسلام وحيث تتعايش مختلف المذاهب والطوائف والأديان في جو من التسامح والمحبة والوئام.

وكانت المقارنة مضحكة مبكية تبعث على الأسف والرثاء بمثل ما تبعث على الحزن والآلام.

ولعل هذه المكاتب السياحية قد واصلت فتح أبوابها وتوزيع نشراتها لعام أو أكثر من عام بعد بداية الحرب ظنا منها بأن الحرب إنما جاءت نتيجة أزمة طارئة سرعان ما تنتهي وعندما تواصلت بكل عنفها وطغيانها أقفلت هذه المكاتب أبوابها ورمت بنشراتها التي تتحدث عن الحضارة والحب والصفاء والتعايش بين المذاهب والأديان إلى سلة المهملات لأن هذه القيم الحضارية ذهبت فعلا إلى سلة المهملات على أيدي الميليشيات وقبضايات الحرب الأهلية، ولا أدرى متى يفتح لبنان مكاتبه السياحية من جديد ويعيد مرة أخرى طباعة وتوزيع نشراته التي تدعو الناس إلى زيارة لبنان وسيكون ذلك قريبا

بإذن ا وبرغم كل الخيبات والانتكاسات وبوادر السلام المجهضة وبرغم كل بوارق الأمل التي أشعت لحظة ثم انطفأت لتأذن بظلام أشد حلكة وكثافة برغم ذلك كله سأتصور أننا بدأنا نرى ضوءا يلوح في نهاية النفق، وأن الجرح الذي ظل مفتوحاً على مدى أربعة عشر عاماً قد آن له أن يلتئم ويبرأ وينتهي نزيفه وإن الفئات المتقاتلة قد وعت الدرس وأدركت بعد كل هذا الخراب أنها لن تجني من تقاتلها إلا المزيد من الموت والخراب سأتصور أن كاتب النشرات السياحية الذي أحالته القذائف والصواريخ والسيارات المفخخة إلى التقاعد سوف يعود من جديد إلى كتابة نشرته التي تمتلئ بحب لبنان وتمجيده والإشادة بحضارته وأمته وسلامه، وسيتحدث هذه المرة عن قدرة الإنسان على تجاوز المحنة وإعادة بناء ما خربته الأطماع والمؤامرات والشهوة المدمرة للحكم والسيطرة، سيتحدث عن انتصار القيم

الحضارية ضد عوامل الضعف الإنسانى وروح العداء والهمجية العصرية، سيتحدث عن انتصار إرادة الحياة في مواجهة إرادة الموت وانتصار قوى الخير والنور ضد قوى الشر والظلام، سيتحدث عن لبنان الجديد المعافى الذي صنع أسطورة طائر النار الفينيقى وتمثلها فغادر رماده وانطلق يقتحم آفاق العمل والبناء من جديد سيتحدث عن انتصار مارون عبود وشكيب أرسلان وأمين نخلة وميخائيل نعيمة ومي زيادة وجبران خليل جبران والأخطل الصغير والشاعر القروي وشوشو وعاصى رحبانى وفيلمون وهبة وفيروز ووديع الصافي ووليد غليمة الذين لم نسأل إلى أية طائفة ينتمون فقد أحببناهم لأنهم يمثلون لبنان العطاء والإبداع والحضارة والوجه العربي الأصيل.

ولقد عبر المثقفون العرب عن إحساسهم بالفجيعة لما حدث في لبنان فهم جميعاً وعلى مختلف

مستوياتهم ومدارسهم الفكرية نالوا حظا من خيره وأفضاله عندما كان يمثل زهو وشموخ الفكر العربي، وكانت عاصمته بيروت مركز إشعاع يعم بضوئه جيوب الظلام في تاريخنا الحديث لقد نهلنا جميعا من ينابيعه الثرية واغترفنا من خيراته الكثيرة ودخل لبنان كجزء من نسيجنا الفكري حتى صار وطناً للروح والقلب.

ولذلك فإنه عندما يتجدد الحديث عن الوفاق اللبناني بمناسبة الانتخابات الرئاسية فإن قلوبنا تخفق أملا ورجاء بأن تشهد المرحلة المقبلة عودة إلى لبنان الأصيل لبنان الفكر والثقافة والمحبة والجمال والأمن والسلام كما تقول بذلك نشراته السياحية القديمة.

- ٥٨ -

كثيراً ما نقرأ انتقادات لهذه المؤتمرات الكثيرة التي يعقدها العرب داخل الوطن العربي وخارجه،

حشد من المؤتمرات السياسية والأخرى التي تتعلق بشئون الفكر والثقافة والعلوم تتناول مختلف القضايا والاهتمامات وتغطي مختلف جوانب الحياة ولا يكاد يمضي أسبوع دون أن نسمع عن ندوة أو مؤتمر يعقده العرب لمناقشة إحدى القضايا التي نعرف أن مؤتمرا سابقاً قد ناقشها منذ عام مضى، ولا بد أنه خلال هذا العام قد استحدث أحداث وتطورات استوجبت حشد عدد آخر من المدعوين وعقد ندوة أو مؤتمر جديد لإعادة طرح الموضوع ومناقشة القضية مرة أخرى.

والحقيقة أن هذه المؤتمرات الكثيرة صارت تمثل ظاهرة يجب الوقوف عندها قليلاً إذ لا بد أن هناك سراً وراء الإصرار على عقدها بهذه الكثافة وهذا الإلحاح.

والبحث عن السر يقتضى معرفة الدوافع وراء عقد هذه المؤتمرات وهي دوافع تختلف باختلاف

المؤسسات التي تدعو إليها، فبعض هذه المؤتمرات تقيمها اتحادات وروابط مهنية كالمهندسين والأطباء والمعلمين لمناقشة قضايا تتعلق بالمهنة أو مجال التخصص وبعضها مؤتمرات سياسية تدعو إليها الحكومات أو المنظمات التابعة لها لتعزيز توجهاتها السياسية وتعميق بعض المفاهيم والأطروحات التي تتبناها وبعضها الآخر مؤتمرات علمية وفكرية تتولى إقامتها المؤسسات والجمعيات الثقافية ومراكز البحث والجامعات التي تسعى لتأكيد دورها في المجتمع وتعزيز حضورها في الساحة الثقافية، ويمكن القول بأن القاسم المشترك الذي تلتقي فيه كل هذه المؤتمرات هو كونها تعبيراً عن إدراك مؤسساتنا السياسية والثقافية والمهنية لواقع الأزمة الذي يمر بها المجتمع العربي وبحثها عن طريق للخروج من هذه الأزمة. ويبقى بعد ذلك السؤال الأساسي، وهو مدى ما تحققه لنا هذه المؤتمرات من نفع وفائدة وإلى أي

مدى يمكن اعتبارها وسيلة فاعلة لتجاوز المأزق التاريخي الذي يتفاقم إحساسنا به يوماً بعد يوم رغما عن كل هذه المؤتمرات، ثم هل ترانا اعتنينا بتنفيذ أو محاولة تنفيذ توصيات المؤتمرات السابقة حتى نسعى لإقامة مؤتمرات جديدة تناقش القضايا وتحرر ذات التوصيات؟

أسئلة لا أعتقد أن القائمين على أمور هذه المؤتمرات يستطيعون إغفالها. وإذا كان لكل نشاط إنسانى هدف معلن فإن له أيضا أهدافا مضمرة قد لا يكون الوعي بها مدركا تماما الإدراك لدى القائمين به.

وبعيدا عن الأهداف المعلنة لهذه المؤتمرات فإن لها أهدافا مضمرة نستطيع أن نستشفها من خلال الأحاديث والتصريحات التي يدلي بها المشاركون في المؤتمرات للصحافة عند سؤالهم حول ما يرتجون تحقيقه من هذه المشاركة ومهما تعددت الإجابات فإن

هناك جانبا يشتركون جميعهم في التأكيد عليه وهو اغتباطهم بالفرص التي أتاحها لهم المؤتمر للالتقاء بأخوة وأصدقاء وزملاء مهنة طال افتراقهم عنهم ولا شك أن الذي أقام هذا المؤتمر لم يقمه من أجل أن يلتقي الناس بأصحابهم ولم يجعله هدفاً من أهدافه أو بنداً في برامجه ومع ذلك يبقى هذا الهدف الذي أبى صاحب المؤتمر أن يعترف به وهو أهم إنجاز يتحقق من وراء عقد هذه المؤتمرات، ولذلك أسميه هدفاً مضمراً وأعتبره دافعاً أساسيا وراء الدعوة لكل مؤتمر حتى وإن اختفى ذكره من كل وثائقه وأدبياته.

لقد فرضت ظروف الفرقة والتمزق والواقع الإقليمي والنزاعات الداخلية نوعاً من العزلة بين مثقفي ومفكري وعقول الوطن العربي ومنعتهم من تحقيق التواصل الواجب تحقيقه بين أمثالهم إغناء للفكر وتعزيزاً للروابط والوشائج التي تجمع بينهم فأضحوا يعيشون وضعاً استثنائيا يندر أن يعيشه

مثقفو الأوطان الأخرى، ولذلك فقد جاءت هذه المؤتمرات تصنع كوة في الجدار لكي يستطيع المثقف العربي أن يمد من خلالها يده ليصافح مثقفا آخر.

- ٥٩ -

بمثل ما نقرأ لكتاب كثيرين يطالبون بمواجهة الغزو الثقافي والتصدي له وتعزيز مواقعنا الدفاعية ضد الهجمات القومية الكاسحة التي تأتي من الغرب بغية اقتلاعنا من أرضنا وتربتنا لنبقى في مهب الريح لا أرض ولا حدود ولا شخصية ولا ثقافة فإننا أيضاً نقرأ لكتاب آخرين يحذرون من الانسياق وراء هذه الدعوة التي تتخذ منذ البداية موقفاً عدائيا من ثقافة العصر قائلين إنه ليس هناك ما يسمى غزوا في مجالات الفكر والثقافة، إن هو إلا حوار وجدال وتبادل منافع وخبرات وقدرة على الاستفادة من معارف وعلوم نحن في أشد الحاجة إليها، ولكى

نخرج من دائرة التخلف إلى آفاق التقدم فإنه لا بد من فتح الأبواب والنوافذ لاستقبال رياح العصر وثقافته وعلومه وتقنياته، وهو خلاف ينشب بين مدارس فكرية مستنيرة ومثقفين غير محدثين يطالبون بالاعتراف بعلوم العصر ومعارفه، ولكنهم من ذلك يختلفون في تقويمهم لما يمكن أن نأخذه أو نرفضه من ثقافة الغرب التي صارت تهيمن هيمنة كاملة على روح العصر وحضارته ولعل سبب الخلاف هو هذه النظرة الكلية التي تنظر بها إلى هذه القضية في حين أننا نظلم أنفسنا ونظلم الثقافة الغربية أيضاً عندما نضعها في سلة واحدة ونتجادل عما إذا كان من الواجب أخذها أو تركها برمتها ولذلك فإنه لا بد من فهم العقد التي تحكم علاقتنا الثقافية بالغرب. إن لنا عدوا تاريخيا هو العدو الصهيوني الذي جاء لغزونا راكبا حصانا غربياً متدرعاً بدرع غربى شاهرا في وجهنا سيفا صنع في الغرب هذه حقيقة أساسية لا بد

من إثباتها ولم تكن ضحية هذا الغزو الصهيوني مجرد قطعة غالية من تراب الوطن انتزعت من تحت أقدامنا أو مجرد جزء من أبناء شعبنا اقتلع اقتلاعاً من أرضه وبيوته وبساتينه، وإنما هناك ضحية أخرى هي الثقافة العربية في فلسطين التي استهدفها هذا العدو كما استهدف الأرض والإنسان فعمل على تزييف التاريخ وتشويه المعالم الحضارية وسرقة التراث الشعبي في مجال الفنون والحرف التقليدية ثم عزز ذلك كله بحملة لاغتيال سمعة الإنسان العربي وتشويه شخصيته من خلال القلاع الإعلامية والثقافية التي يحتل فيها العدو الصهيوني موقع السيادة ويتولى مناصب التوجيه والإدارة مشككا في تاريخنا وحضارتنا وقدراتنا العقلية ويكفي أن ننظر إلى حجم العناوين والأفلام التي تصدر كل عام بقصد تشويه صورة الإنسان العربي ومسخه، ومن هنا لم يعد ممكنا أن ننظر إلى ثقافة الغرب بعيدا عن

هذا التأثير والنفوذ الصهيونى بمثل ما يمكن أن تفعل أمة أخرى مثل الهند مثلاً، ولذلك فإن العامل الصهيونى صار عاملاً أساسيا في تعاطينا مع هذه الثقافة وهو عامل يمنع المجال الثقافي من أن يبقى ميدان جدل وحوار وتلاقح أفكار ويحيله إلى ميدان حرب مثل الميادين العسكرية والاقتصادية.

والعامل الثاني أو العقدة الثانية التي تحكم علاقتنا الثقافية بالغرب هي أننا ما زلنا نعاني حتى الآن من آثار الرحلة الاستعمارية عندما كان هذا الغرب يستعبد شعوبنا ويستعمر أرضنا وهو اليوم ليس مبرئا من تهم الهيمنة والاستغلال والسيطرة بحثاً عن مناطق نفوذ لتصريف بضائعه وخدمة استراتيجيات صراعه الدولى ومازال يستخدم الثقافة لتحقيق هذه الأغراض بمثل ما استخدمها في التمهيد لغزوه العسكري لبلادنا.

إن هذين العاملين بجوار عوامل أقل أهمية لا يتسع المجال لذكرها هما أبرز ما يحكم علاقتنا الثقافية بالغرب ووعينا بهما لا يلغى حاجتنا الملحة للاستفادة من منجزاته العلمية ومكتسباته الحضارية بشرط اليقظة والانتباه والحرص على فهم هذه المحاذير وإدراكها.

- ٦٠ -

يأتى حدث المجزرة التي ارتكبها جنود الغزو الصهيوني في بيت المقدس ليقول لنا بلغة العنف والدم والجريمة إننا لا نستطيع أن ننسى تناقضنا الرئيسي والأساسي والمصيرى مع عدو أمتنا لنغرق أنفسنا في مشاحنات ونزاعات نصنعها بأنفسنا لإيذاء أنفسنا.

تأتى هذه الجريمة البشعة التي شهدتها عتبات المسجد الأقصى لتقول لنا إننا أهدرنا وقتا ثمينا

وجهداً كبيراً وضحينا بأرواح وموارد وإمكانيات من أجل قضايا بعيدة عن ميدان المعركة الحقيقية والصراع الحقيقي الذي يهدد أمتنا ووجودنا.

كل ما أتمنى أن ندركه ونحن نرقب الأحداث الدامية في مدينة القدس هو أن هناك عدواً مشتركا لكل شعوب هذه الأم يغتصب أرضها ويحصد أمنها ويسفك دماء أبنائها ويشرد شعبا من شعوبها ويسعى لتشريد شعوبها الأخرى ليبني دولته الكبرى فوق أرضها ولا يهمه إلا أن يرى العرب أمة ممزقة ضئيلة الشأن تعيش حياة الإذلال والهوان ويعمل اك الطرق لطردها من خريطة العصر. وإن صوت العقل والمنطق والحكمة بل صوت الضمير والمسئولية القومية يقول بأنه آن لشعوب هذه الأمة التي تنتسب إلى البيت العربى الإسلامى أن تنتهي سريعاً من لعبة العبث بتاريخها وحياتها ومستقبلها وأن تضم صفوفها وأن يستيقظ ابن العائلة الواحدة

على صوت الدم الذي يدق نواقيسه في القدس لمواجهة العدو الذي يقف على أبواب مدينتهم.

إن الدروس التي يقدمها لنا تاريخنا الحديث لا حصر لها ولقد رأينا في صراعنا مع العدو الصهيوني كيف جاءت نكسة الخامس من حزيران عندما دخلنا الحرب ممزقين مشتتين نشب أظافرنا في أعناق بعضنا البعض ثم كيف انقلبت هذه النتيجة عام ٧٣ عندما توفر لنا حد أدنى من التعاون العربي دخلنا به حرب العبور.

حتى إذا بقيت المعركة هذه المرة تدور على أرض المفاوضات السياسية والمؤتمرات الدولية فإنها أيضاً تحتاج إلى حد أقصى من التعاون العربي يحقق لنا حضوراً فاعلاً على الجبهة السياسية ويضمن لنا نتائج تتفق مع ما لأمتنا من مكانة في الحضارة والتاريخ، أما إذا استمر هذا التناحر فيما بيننا فإنه لن يفضى بنا إلا إلى مزيد من الكوارث والنكسات.

لقد قدم لنا دم الشهادة الذي سطع فوق عتبات بيت المقدس إضاءة جديدة تدلنا على الطريق وتفتح أعيننا على الهدف الحقيقي فلماذا تعمى الأبصار عن رؤيته؟

- ٦١ -

في سمائنا قمر إسرائيلى يصورنا.

قمر تجسسي تآمري زودته الذاكرة الإسرائيلية بخلايا مشحونة بكل حقد السنين الذي يحمله ضدنا أبناء صهيون، كما زودته بنظام لتوليد الطاقة قادر على بث موجات لا نهاية لها مما عرفته البشرية عن هؤلاء القوم من غش ودجل وتضليل.

وله حساب آلي يدخر في ذاكرته التاريخية أرشيفا بوصايا المؤتمرات الصهيونية العالمية التي تعقد منذ تسعين حولا إلى هذا اليوم كما زودته بنسخة جديدة ومنقحة من بروتوكلات حكماء صهيون،

ويمضى هذا القمر في مدار حول الأرض يغطي كل مناطق الضعف والهوان في الجسد العربي.

في سمائنا قمر إسرائيلي صهيوني يصورنا ويسلط عينه السحرية على أكثر أشيائنا خصوصية وحميمية ويكشف لأعدائنا كل عصب ينبض في أرضنا وينقل لهم كل همسة نقولها في السر والعلانية.

في سمائنا قمر ليس كبقية الأقمار التي يناجيها الشعراء والعاشقون لبهائها وبراءتها وما تشيعه في الفضاء من أمن وسلام فهو قمر للجريمة وليس للأمان قمر للحرب وليس للسلام قمر مصنوع من مشاعر الحقد لا مشاعر الحب وأداة لتسهيل مهمة جنرالات هرتزل ووايزمان وبن جوريون وشامير في تنفيذ مخططات الدمار والهلاك التي تستهدفنا.

ولا أدرى لماذا صرت أحس بعد أن أطلقت دولة العدو الصهيوني هذا القمر الصناعي في الفضاء

أنني أعيش في بيت لا سقف له وأن كل أشيائي الخاصة باتت الآن مباحة لتطفل وفضول أكثر الأعداء شراسة وحقداً.

كما صرت أحس بالعجز على أن أرفع رأسي إلى السماء لأتأمل الأقمار والنجوم التي تسبح في الكون محروما من النظر إليه والاستمتاع بجمالها لأننى أعرف أن بينها قمراً دخيلاً، معاديا يسعى لهلاكي وينتظر أية فرصة للانقضاض علي.

في سمائنا قمر إسرائيلي يصورنا.

وكأنه لم يعد كافياً ما اغتصبته دولة الكيان الصهيونى من أرض وما أمطرتنا من جواسيس وما حققته من اختراقات لصفوفنا لكي تأتى اليوم وتنتزع قطعة من سمائنا تضع فوقها قمراً يدور فوق رؤوسنا وعينا لا تغفل ولا تنام، تنقل أخبارنا وتفضح أسرارنا وتصور أثاث بيتنا قطعة قطعة.

في سمائنا قمر إسرائيلى يراقبنا يحمل نجمة داود ويدور بها فوق رؤوسنا عشرات الدورات كل يوم، وهي حقيقة يجب أن نعرف منذ اليوم كيف نتعامل معها وندرك دلالاتها وأبعادها ونعيد مراجعة حساباتنا على ضوئها ولأن هذا العمل بمثل ما يكشف عنا لعدونا فقد جاء أيضاً يكشف ضعفنا أمام أنفسنا أن ما يجعلنا نحس بالهوان هو أن هذه الدول التي تواجهنا والتي حققت تفوقا يخجلنا إنما هى دول هجينة ضئيلة الحجم قوية بغيرها وليست بإمكانياتها لأن لديها من موارد وإمكانيات لا تتكافأ بأية حال مع حجم وموارد أمتنا إنها لا تملك من الموارد البشرية ما يوازي عشر مواردنا ومن الإمكانيات الاقتصادية والعسكرية ما يوازي إمكانياتنا وإذا كانت علاقتها الخاصة بأمريكا قد أتاحت لها الخبرة العملية التي مكنتها من إطلاق هذا القمر الصناعي فإن لدينا من مواردنا الذاتية ما يؤهلنا لتحقيق فوز عليها، دون

حاجة إلى الاعتماد على قوة غير قوتنا التي لم نعرف كيف نوظفها أو نستثمرها ولقد بات مخجلا ومعيبا بل أصبح عاراً تاريخياً أن نعجز عن توحيد إمكانياتنا ونحن نواجه عدوا يستهدف كل قطر من أقطارنا وكل شبر من أرضنا ويسعى لتحقيق وجوده على حساب وجودنا وقوته على حساب قوتنا.

قمر يصورنا ويعيد تصويرنا.

كل شيء أضحى الآن مباحاً ومكشوفا أمام عدونا فلا حاجة بنا بعد اليوم إلى عقد المؤتمرات المغلقة وإجراء المشاورات السرية ولا حاجة لإخفاء حركة الجنود وتنقلات الأسلحة والتستر بالجبال لإنشاء القواعد العسكرية والمهابط السرية لطائرات أسلحتنا الجوية كما لم تعد ثمة حاجة لنقل المعلومات بالشفرة والرموز واستعمال كلمة السر في لغة التخاطب بين جنودنا فقد أضحى كل شيء مباحاً

ومعروفا ومكشوفا لهذا القمر الذي يحمل رتبة جنرال في جهاز المخابرات الإسرائيلية.

في سمائنا قمر إسرائيلي يلوثها.

وإذا كان السياسيون قد تعايشوا مع زمن المحنة حتى صاروا جزءا منه ونتيجة من نتائجه فلا أدرى أية محن سوف يعيشها الشاعر العربي الذي أحب الأقمار والنجوم وخصها بأجمل أشعاره وظل على مدى الأعوام يبثها لواعج قلبه ويناجيها بأرق العواطف والمشاعر والأشواق وكيف يستطيع الآن أن يتعامل مع نجوم وأقمار يندس بينها قمر اصطناعي يرتبط بقواعد البث والإرسال في غرفة الجنرالات اليهود.

سوف لن تكون قصائد بعد اليوم شوقاً ومناجاة لهذه الأقمار والنجوم وإنما رثاء لأزمنة الزهو العربي التي تواصل تراجعها عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

إنه لأمر مبهج ومريح أن يطالع الإنسان كاتبا مثل الأستاذ بهاء الدين في عموده اليومي الذي يتناول القضايا السياسية اننا في هذه الغابة من الأحداث والوقائع السياسية التي تختلط فيها الألوان وتتشابك فيها الأضواء والظلام وتضيع فيها معالم الطريق، نحتاج دائماً إلى مرشد حكيم وقلم تمرس بمعالجة الأحداث السياسية يرافقنا في رحلة يومية عبر أدغال هذه الغابة الموحشة.

إنها خدمة يقدمها لنا دليل يملك الخبر والمعرفة والدراية بخفايا وأسرار هذه الغابة يستطيع أن يقودنا عبر دروبها الخفية والمجهولة وينفذ بنا إلى مناطق الضوء عندما تتشابك الأغصان وتصنع ظلالاً كثيفا أشبه بالظلام. بهذه الروح أقرأ ما يكتبه الأستاذ بهاء الدين في يومياته وأتلقى كلماته باعتبارها

إشارات من دليل أطمئن إليه وأضع كامل ثقتي في خبرته دون حاجة لأن أسأله كلما قال شيئا أن يقدم لي الأدلة والبراهين ولهذا فأنا لا أطالبه بتقديم التحليلات والشروح والتفسيرات التي لا يستوعبها أساساً عمود يومى صغير وأكتفي بقراءة هذه الومضة أو الخاطرة التي أعرف أن وراءها قلما تمرس طويلاً بالكتابة السياسية حتى استطاع الوصول إلى هذا الرأي بل إننى كثيراً ما أجد نفسى أكثر ضياعاً مع هذه التحليلات السياسية المطولة التي تعتمد على التركيب والتعقيد والإسهاب. إن البساطة التي يتحدث بها الأستاذ بهاء الدين والتى تشبه أحيانا حديثاً حميماً يتبادله الأصدقاء قرب مواقد النار هو ما جعل لزاويته اليومية نكهتها الخاصة المميزة ولذلك فإن الإخوة القراء الذين يطالبون هذا الكاتب بالتحليلات عليهم البحث عنها في صفحات أخرى ولدى كُتاب آخرين أو لدى كتب سبق أن ألفها الأستاذ بهاء الدين

نفسه ولكن لغرض آخر غير الأغراض التي تخدمها هذه الزاوية. إن ما يقدمه في هذه الزاوية إنما هو حصيلة خبرة وتجربة ومسيرة طويلة على هذا الطريق وهى زاوية تعتمد الايجاز والتركيز، ولذلك فهو قد يكتفي أحيانا بتقديم النتائج دون حاجة إلى إطناب في تقديم الدوافع والتفسيرات التي يسوقها لكي يقنعنا بصواب رأيه لأنه لا يأتى إلينا طالعا من الأفق دون سابق معرفة أو تجربة أو تاريخ إنه يأتي ليقول كلمته السريعة الموجزة المركزة محملاً بتجاربه وتاريخه وممارسة للكتابة السياسية امتدت إلى ما يقرب من أربعين عاماً ويأتي حاملاً معه رصيده من ثقة القراء التي اكتسبها بسبب نزاهته وأمانته وموضوعيته في تناول الأحداث ومعالجة القضايا السياسية وعندما نقرأ رأياً لهذا المفكر السياسي الكبير فهو لا يأتي من فراغ وإنما يأتى كمحصلة لكل هذه التجارب والمعاناة ونتيجة لهذا المخاض الطويل

والصراع الذي عاشه يوماً بيوم مع الوقائع والأحداث.

جاء ذات مرة أحد هواة الفن الأغنياء يطلب لوحة من بيكاسو فرسم له تكوينا لم يأخذ منه سوى بضع دقائق وطلب ثمنا كبيراً يليق بلوحة لفنان مثله. أبدى الرجل اندهاشه لأن بيكاسو يطلب كل هذه الأموال مقابل عمل لم يستغرق إنجازه سوى لحظة قصيرة.

فأفهمه بيكاسو بأن وراء هذه اللحظة القصيرة التي يستهين بها أكثر من خمسين عاما من التجارب والخبرة والمعاناة هى التي صنعت هذه اللوحة.

وللأسف الشديد فإن بعض القراء ينظرون إلى كلمات الأستاذ بهاء الدين الموجزة القصيرة بمثل ما نظر ذلك الرجل إلى لوحة بيكاسو.

يتحدث المفكرون عن الخصائص التي تميز التكوين العقلي لكل أمة، وإذا كان للعقل ملامح عامة يشترك فيها جميع البشر فإن ثمة خصائص مشتركة بين أبناء الأمة الواحدة تسهم في تكوينها ظروف تاريخية وبيئة جغرافية وجذور تربوية وتراث فكري وثقافي واحد ومجموعة من العوامل الأخرى التي تتعلق بالأبعاد الحضارية والجوانب العقائدية والانتماء القومي والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت مختلف المراحل التاريخية ولست هنا في مجال الحديث عن إنجازات العقل العربي التي صنعت حضارة أضاءت أركان الدنيا ذات يوم، ولكنني أريد أن أتامل مع القارئ هذا الشيء الذي يربك علاقتنا بالعصر ويجعلنا في موقف متخاف عنه برغم ما توفرنا عليه من إمكانيات وموارد وأعتقد أن أكثر شيء يضيق به العقل العربي هو التخطيط وبرغم أن التخطيط صار كلمة السر التي تفتح

مخازن العصر وبرغم وعينا بهذه الحقيقة إلى درجة أننا ننشئ وزارات للتخطيط في كل قطر من أقطارنا ونؤسس فيها مجالس عليا للتخطيط يشرف عليها كبار المسئولين وبرغم كل هذا الإلحاح والاجتهاد في إنشاء المؤسسات التي تعنى بالتخطيط إلا أننا أكثر الناس ضيقا به في واقع الأمر.

إن هذا الضيق ينعكس في سلوكنا الشخصي وتعاملنا اليومي بمثل ما ينعكس في سياستنا الرسمية وفي حين نجد الأجنبي مثلاً يحمل مفكرة تحتوي على مواعيده لعام قادم فإننا نجد أنفسنا نضيق بالارتباط الذي يمتد ليوم أو يومين ونفشل في الإيفاء بأية تعهدات تتجاوز هذا المدى.

وقد لا يكون هذا الضيق بالتخطيط عيبا في حدا ذاته لولا أنه صار قانونا من القوانين التي تحكم عالمنا وتعبر عن روح هذا العصر فهو لم يكن عيباً في مراحل تاريخية سابقة تعتمد أكثر ما تعتمد على

المغامرة والفروسية واقتحام الآفاق تأسيساً للدول وبناء للمجتمعات الجديدة في أراض تستولي عليها الجيوش والأساطيل استيلاء وتتسابق على الفوز بها وزرع أعلامها فوقها. وكانت القيم التي تحكم العالم هي قيم الشجاعة والفطنة والذكاء وغزارة الإمكانيات أكثر مما يحكمه التخطيط الهادئ البطىء الذي يستغرق عدداً من السنوات.

ولكننا للأسف الشديد نعيش في عصر لا مكان فيه للمغامرة أو الشجاعة التي لا تحكمها الحسابات فهو عصر التخطيط والبرامج الطويلة المدى والمخططات التي تضع لكل شيء حسابه قبل الأوان ولا مجال لأي تفوق أو نجاح يمكن تحقيقه خارج هذا الإطار لا على مستوى التعامل الشخصي ولا على مستوى السياسات والتعامل بين الدول والبلدان.

ولا أدري مدى قدرتنا على تدارك هذا العيب فهو يحتاج أيضاً إلى تخطيط على مدى بعيد يبدأ من

مؤسساتنا التعليمية لكي تتولى غرس جذور تربوية جديدة تزيل هذا الارتباك الذي يحكم علاقتنا بالعصر وتعيد له التوازن والانسجام وخاصة ونحن نواجه في صراعنا الحضارى عدوا يخطط لمؤامراته ضدنا بكل ما يتيحه العصر من إمكانيات للبرمجة والتخطيط ولقد أسهبت الدراسات التي تتحدث عن هذا الصراع في توضيح ما يعتمده العدو الصهيوني من تخطيط وتدبير، وكيف أن كثيراً مما تمارسه ضدنا إسرائيل قد بدأ رسمه منذ المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، أكثر من تسعين سنة مضت واستطاعت دولة المسخ الصهيوني برغم كيانها المفتعل وشعبها الهجين وتنافر سكانها القادمين من مختلف أصقاع الأرض وضآلة عدد هؤلاء السكان أن تنتج بفضل التخطيط الطويل المدى سلاحها النووي والذري وتطلق في الفضاء أقمارها الصناعية التجسسية، بينما نراوح نحن في ذات المكان ونقول كلاماً نمتنع في اليوم

التالي عن تطبيقه وننشئ منذ أكثر من أربعين عاماً مؤسسات عربية مشتركة ونهدمها بدءا من مؤسسات الطاقة وأحلام السلاح النووي التي ظلت كلها كلاماً في الهواء وحبراً فوق الأوراق كدليل عمليى على ضيقنا بالتخطيط الطويل وعدم قدرتنا على تحمل ما يحتاجه من صبر وعناء.

- ٦٤ -

هناك مفارقة يثيرها في الذهن هذا الحديث عن مستوى التعليم في بلادنا فنحن ومنذ أكثر من أربعين عاماً نعيش ثورة تعليمية شملت كل أجزاء الوطن العربى ارتفع خلالها عدد المتعلمين من عشرات الآلاف إلى عشرات الملايين وانتقل عدد المدارس من خانة الآحاد والعشرات إلى خانة الآلاف.

وبدلاً من ثلاث أو أربع جامعات إلى أكثر من ثمانين جامعة بطاقة استيعابية تبلغ في بعض جامعاتنا

رقما قياسياً، فلماذا إذن وبرغم الازدياد المهول والسريع في أعداد المتعلمين يبقى توزيع الكتاب العربي محدوداً ومحصوراً في هذه الآلاف الثلاثة أو الأربعة التي نطبعها من نسخه وكأن هذا الرقم المخجل الهزيل بات قَدراً لا فكاك منه؟.

فهل جاء ذلك حقاً بسبب القيود التي تفرضها الأجهزة الرسمية على تداوله وتوزيعه؟ أم أن السبب يكمن في وسائل الإعلام الحديثة التي جاءت بتلفازها وأشرطتها المسجلة المسموعة والمرئية لكي تعزف الناس عن قراءة الكتاب؟ أم ترى أن الصحف والمجلات باعتبارها أكثر يسراً وسهولة وأكثر قدرة على الإثارة بألوانها وتصاويرها وتحقيقاتها الصحفية السريعة هي التي استولت على حصة الكتاب واحتكرت لنفسها كل القراء؟

ومهما كان ذلك صحيحاً ومهما كان تأثير هذه العوالم حاسماً وفعالاً فإنها لا يمكن أن تكون مبرراً

لهذا النكوص عن قراءة الكتب ولا يمكن لكل هذه الوسائل بما تقدمه من معارف وثقافة أن تكون بديلا عن الكتاب.

ومعنى ذلك بجلاء ووضوح أن هناك خللا كبيراً في أساليب استهلاكنا للثقافة وهو خلل يهدد جميع النتائج التي تحققت من وراء الثورة التعليمية التي عرفها الوطن العربى لأنه بحسبة بسيطة تكتشف أن كل هذه الملايين من المتعلمين الذين أخرجتهم المعاهد والجامعات يتوقفون عن أي تحصيل حقيقي فور انتهائهم من الدراسة وما تقوله بعض الدراسات عن أمية المتعلمين لم يعد خطراً وهمياً وإنما هو خطر حقيقي يهدد كل مخططات التنمية الثقافية ويقدم لنا ملايين الأميين الذين يحملون شهادات تعليمية.

وقبل أن نضع اللوم على هؤلاء المتعلمين الذين ينسون القراءة فور خروجهم من الفصول الدراسية لا بد أن نقف لحظة لمعرفة الأسباب التي

دفعتهم إلى ذلك، لقد بات معلوما أن ما تقدمه الدراسة الجامعية ليس إلا مفاتيح لاقتحام مجالات العلم والمعرفة، وإذا ما أخذ إنسان ما هذه المفاتيح ثم أهملها أو رمى بها في الطريق فكأنه لم ينل تحصيلاً أو معرفة أو علما.

ولكى نفهم هذه الظاهرة لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً. إن أغلب بيئاتنا العربية كانت ولسنوات قليلة مضت بيئات فقيرة وأغلب هؤلاء الذين نالوا تحصيلاً علمياً في العقود الأخيرة نشئوا في بيوت فقيرة وعائلات أمية لا علاقة لها بالقراءة أو الكتب، ومعنى ذلك أن جذورنا التربوية لا تقدم لنا أي عون أو مساعدة لتحقيق هذا المسعى وكان على المخططات التربوية والثقافية أن تضع ذلك في اعتبارها وتقدم من الجهود ما يعوض هذا الخلل ويخلق من القراءة تقليداً مكتسبا وتضع من البرامج ما يرغم الناس إرغاما على القراءة حتى تصبح عادة

كما هي لدى الشعوب المتقدمة وإحدى أهم الوسائل لتحقيق هذه النتائج هو التوسع في إنشاء المكتبات العامة ولكن التنشئة الفقيرة التي تقطعت الأسباب بينها وبين القراءة يبدو أنها كانت من القوة والعمق حتى طالت المشرفين على برامج التنمية الثقافية فأهملوا هم أيضاً هذه المكتبات حتى صارت بلادنا برغم وفرة إمكانياتها وفخامة الأبنية الجامعية التي تشيدها أفقر بلدان العالم في مجال المكتبات العامة.

والذين لديهم معرفة قليلة ببعض الوسائل التي تستخدمها الدول الأخرى لدفع شعوبها إلى القراءة يدركون مدى التقصير الذي نعانيه لقد أصبحت المكتبة العامة ملمحاً أساسياً من ملامح الحياة الحديثة في كل بلد ينشد التقدم والنماء ومرفقاً من المرافق التي تجدها في كل حي أو منطقة سكنية.

ولقد تقدمت التقنيات الآلية والعلمية المسخرة لخدمة هذه المكتبات تقدما مذهلاً بحيث تتيح للقارئ

الوصول لأية مادة يريدها وتزويده بنسخة مصورة من أى كتاب أو مرجع يتوفر في مكتبات العالم الكبرى، بينما يقضي الإنسان نهاراً كاملاً في مدينة عربية بحثا عن مكتبة لا يجدها، وإذا وجدها فهي فقيرة في إمكانياتها ومراجعها وأساليب تعاملها مع الجمهور، والأدهى من ذلك أن هذه الخدمات المكتبية تزداد مع الزمان تخلفا وسوءا بدليل أن ما لدينا من مكتبات قليلة ـ وأقول ذلك من واقع خبرة خاصة واتصال بأكثر من مدينة عربية ـ صارت الآن تقفل باب الإعارة بحجة أن حصيلتها من الكتب تتناقص لأن الناس يذهبون بالكتب ولا يعيدونها.

فكيف نستغرب بعد ذلك إذا أهمل الناس الكتاب وأضربوا عن قراءته؟

ونحن نتابع الأحداث الرياضية العالمية ونقرأ التعليقات والتحليلات التي تكتبها الصحف العربية ونستمع إلى الإذاعات ونشاهد البرامج المصورة التي تنقل الألعاب والمباريات نجد أن قلوبنا ترتفع وتنخفض مع ارتفاع وانخفاض الاحتمالات التي ترشح أحد لاعبينا للفوز بواحدة من ميداليات هذه الألعاب.

ونبتهج ونحن نسمع أو نقرأ أن أحد العدائين أو المصارعين سوف يفوز لنا بهذه الميدالية الوحيدة، الفريدة. الخرافية، التي يتوقف عليها مآلنا ومصيرنا. وكرامة شعوبنا بين شعوب الأرض، نسهر الليل حتى الصباح، وننتقل من إذاعة إلى أخرى وقد تعلقت قلوبنا من المحيط إلى الخليج بأمل أن نرى هذا الاحتمال يتحقق وحلمنا بالحصول على ميدالية مهما كان المعدن الذي تنتسب إليه يصبح واقعاً، ونرى دولا أصغر منا حجما وأقل عددا فازت بثلاثين

وأربعين وخمسين ميدالية ودولا أكبر منها فازت بسبعين وثمانين ميدالية أخرى، ونرى بلادانا صغيرة لا تساوى حجم قرية من قرانا العربية مثل سيرنيام أو غيرها تفوز بمثل هذه الميدالية الذهبية منذ أول أيام الدورة دون أن يؤثر ذلك في معنوياتنا أو يفت في عضدنا فنحن سوف نبقى ساهرين قائمين الليل إلى أن تأتي هذه الميدالية الكريمة ذات المجد والمهابة.

ولا يملك المرء إلا أن يتساءل عما حدث للدنيا حتى وصلنا إلى هذا المستوى من الضعف والهوان الذي شمل كل جوانب الحياة بما في ذلك الألعاب الرياضية ويتأسف لأن الأمر هذه المرة لا يتعلق بعلوم وتقنيات ومعارف حديثة وما يرافقها من اختراعات واكتشافات تظهر كل يوم دون أن تكون لنا علاقة بها بحجة أن الاستعمار قد أبقانا دهراً طويلاً تحت حكمه وأضاع على شعوبنا وقتا ثمينا

للحاق بالأمم المتقدمة وهو ليس أمر معارك وحروب نفشل في خوضها أو تحقيق نصر فيها لأن هناك امبريالية عالمية تتآمر ضدنا وتدعم عدونا بالعلم والمال والسلاح وهو ليس أمر ثقافة وآداب وفنون يحتاج النهوض بها إلى سنوات طويلة من الجهد والعناء والمؤسسات التربوية والتعليمية التي لم نكن في أزمنة قديمة نملكها. إنه أمر ألعاب رياضية أغلب الذين يقومون بها من النشء الجديد والكوادر الشبابية التي كان يمكن تأهيلها على مدى سنوات قليلة وهي رياضات لم يمنعنا الاستعمار أو الصهيونية أو سلاطين الأتراك عندما حكمونا من ممارستها ولم نسمع أن فرمانا أو قانونا صدر ضد شعب من شعوبنا في أية مرحلة من تاريخه يمنع الأطفال من اللعب بالكرة أو يمنع الناس من الركض أو القفز في الهواء، بل إن المستعمر يدفع الناس دفعاً إلى ذلك عندما يطاردهم بجنوده إذا كان شرساً وإذا كان أقل

شراسة أتاح لهم الألعاب التي تلهيهم عن السياسة، وإذا كانت هناك رياضات أخرى ارتبطت بنا وكانت بلادنا أرض نشأتها ولدينا في تراثنا ما يحض على ممارستها، وما ركوب الخيل والرماية والسباحة إلا بعضها، والتاريخ عامر بالشواهد التي تدل على براعة العرب في الرماية، وتجعل من الخيول ذات المنشأ العربي أعظم الخيول إلى يومنا هذا اعترافا بفضل العرب في هذا المجال، علاوة على ألعاب أخرى لا نملك شرف ابتكارها لأنها بدأت منذ بداية الإنسان مثل القفز والركض والمصارعة.

لقد كانت هذه الدورة الأولمبية مناسبة عظيه لاستعراض ضعفنا وهوان مركزنا أمام شعوب العالم التي جلست تعلق أبصارها بالشاشات الصغيرة تراقب الأعلام التي ترتفع والأناشيد الوطنية التي تعزف وترى النتائج التي يحصدها المتفوقون والخيبة التي يحصدها البؤساء من أمثالنا.

لست كاتبا متخصصا في الرياضة، ولست كاتبا متخصصا في الهجاء، ولكن هذه الدورة الرياضية بما تحمله من معان ودلالات جعلتنى أقف مندهشا مما وصل إليه حالنا وما يبعث على الدهشة حقا ليس النتائج التي فشلنا في تحقيقها ولكن هذا المواطن العربي البسيط المسكين الذي وصل به الهوان إلى أن يسهر الليل يراقب الإذاعات المرئية وأقصى أمانيه في الحياة أن يتحقق له الفوز بميدالية مثل تلك التي سبق أن فازت بها كوستريكا وجامايكا وسيرينام.

أخالك وقفت مثلى حائراً إزاء هذا السلوك العدائي الذي يعاملك به خفير يقف على أبواب أحد المستشفيات أو موظف يحتل شباكا للمراجعات أو

دركي يقف لتفتيش حقائب المسافرين بأحد المطارات أو عامل استقبال بأحد الفنادق أو الوكالات.

فأغلب هؤلاء الناس برغم ما تقتضيه المهمة التي يقومون بها من لطف ولياقة، تجدهم يستقبلونك بوجوه عابسة ويتحدثون إليك بلهجة قاسية غاضبة ويعاملونك كأنك لص جاء للسطو والسرقة ولست مواطنا اقتضته الظروف زيارة هذا المستشفى أو مراجعة هذا المرفق الذي أنشئ أساسا لخدمته.

ولعلك زرت مثلي بلدانا أخرى وبرغم اختلاف سحنتك ولهجتك عن أهل البلاد فأنت تجد هذا العامل أو الموظف أو الدركي أو الخفير يستقبلك بابتسامة ويسعى إلى عونك ومساعدتك إذا استطاع وإذا لم يستطع اعتذر إليك بأدب ولياقة دون أن يعتبر وقوفك أمامه مناسبة لتأكيد وجوده على حساب وجودك أو الانتقام من المجتمع في شخصك لأنه أهمله عندما أعطاه موقعا في أدنى السلم الاجتماعى

وتتساءل عن السبب الذي يجعل إنسانا تجمعك به أواصر المواطنة يعاملك هذه المعاملة الخالية من كل أدب وذوق. إنك تأنف من الاشتباك في عراك معه لأنك لو اشتبكت في عراك مع كل من عبس في وجهك لتحولت حياتك إلى سلسلة من المعارك والحروب فتكتم غيظك في وجهك وتسكت على ما نالك من إهانة أو أذى حائرا مندهشا لهذا العداء المجاني الذي يولد فجأة في الهواء دون تبرير أو تفسير. وهذه النفوس التي أصابتها موجة من القحط والجفاف فلم يعد لديها ما تقدمه سوى أشواك العوسج والصبار كأنها أرض داهمتها الأعاصير والأنواء فأهلكت أشجارها وأتلفت كل أثر للخضرة والنماء.

إنك تعرف أن هذا السلوك مخالف لتقاليدنا وميراثنا الحضاري الذي يكرس البر والعطف والتواد والرحمة كمبادئ أساسية للسلوك الذي يجب أن يسود بين أبناء المجتمع، وتضع القيم الدينية

التعامل بين الناس في أرفع الدرجات وتجعله شرطاً من شروط الإيمان لأن الدين هو المعاملة، فمن أين إذن جاء هذا السلوك الغريب عن روحنا وتقاليدنا وديننا، وتصل إلى قناعة بينك وبين نفسك بأن هذا السلوك إنما جاء من شيء طارئ على حياتنا وأزمنة مقطوعة الصلة بأزمنة زهونا وكبريائنا.

فهذا المواطن الذي كان قوتا دائما للأزمات والهزات منذ عصور الهيمنة الأجنبية إلى هذا الزمان الذي تكاثرت فيه المؤامرات الدولية وأفرخت في بلاده الحروب والنزاعات وابتلته بشتى الكوارث والنكسات والنكبات والذي عاش تطحنه التناقضات التي أنتجتها مراحل التحول والتغيير والانقلابات الاجتماعية استنفذ خلال هذه المسيرة القاسية كل ذخيرته من سماحة النفس وجمال الطباع وأورثته هذه الأزمات والنكبات بؤسا تراكم إلى أن وصل حده الأقصى فلم يعد يستطع إلا أن يفيض به على

الآخرين وعندما تكون ضحية لعبوسه وتجهمه وكلماته الساخطة فما نحن إلا ضحية فائض البؤس الذي امتلأ به قلبه وإذا كان القمع يعيد إنتاج نفسه ويكمل دورته مروراً بكل فئات ومستويات المجتمع فنحن جميعاً لا نجاة لنا ولا حصانة لدينا من فائض هذا البؤس وفائض هذا القمع الذي ينبثق من كل مكان وكل إنسان، وسوف نكتشف أننا نحن أنفسنا في مواقف مشابهة لموقفه أبدينا سلوكا يشبه سلوكه وتحدثنا بلغة تشبه لغته وإذا كان البعض منا أكثر وعيا وإدراكا للواقع وبالتالى أكثر قدرة على تفسيره والتعامل معه والاحتفاظ بسلوكهم سويا فإن الأغلبية الساحقة من أهلنا لا تملك إلا أن تستجيب لهذه الدوافع الغامضة التي تجعل المواطن أكثر شراسة وعدوانية في تعامله مع الآخرين ولو كانت حياته أقل بؤسا لاختلفت أساليبه في التعامل مع الناس ولعادت إليه سماحة الطبع والسجايا. إننا نشاهد أحيانا في الأفلام

والتمثيليات المرئية كيف يتصرف العاشق الذي يملأ قلبه الحب حيث يمضي في الشوارع سعيداً يعانق الأشجار وأعمدة الكهرباء ويرسل التحية والابتسامة للطير والهواء إنه فائض الحب يحتوي الكون ويعانق الكائنات فلماذا نلوم من جفت منابع الحب والبهجة في نفسه ففاض ببؤسه على الناس والحياة؟

- ٦٧ -

بمثل ما كانت المعابر المائية التي تربط بين البحار والقارات مواقع استراتيجية تتميز بأهمية خاصة عن بقية الأماكن الجغرافية الأخرى فإن " الماء " صار الآن بحد ذاته مادة استراتيجية وصرنا نلتقي بتعبير جديد يدخل قاموس التعامل الدولى هو " الأمن المائي " الذي يتحدثون عنه بمثل ما يتحدثون عن " الأمن الغذائى " ويعتبرونه الوجه الآخر له.

والعالم العربى صار اليوم معنيا بهذه القضية أكثر من أي وقت مضى وأكثر من أى منطقة أخرى في العالم.

إن البيئة الصحراوية والمناخ الجاف يشكلان أهم الاسباب التي تجعل بلادنا في مقدمة البلاد التي تهدد الأخطار أمنها المائي والغذائي.

إن الميكنة الحديثة للأساليب الزراعية ومحاولات الدخول في مرحلة المجتمع الصناعي بقدر ما ساهمت في تطوير وتنمية وتحديث مجتمعاتنا العربية فقد أسهمت في استنزاف مواردنا المائية التي كانت منذ البداية موارد محدودة، ولقد كان من الممكن لهذه الموارد أن تسد حاجتنا حاضراً ومستقبلاً لو أننا أبقينا على استخدام المحاريث البدائية واستعمال وسائل الري القديمة ولم نستبدل الدلاء بالمحركات والأنابيب، ولكن ذلك كان يعني التخلف عن العصر والامتناع عن الاستفادة من منجزاته والبقاء مراوحين

في أزمنة ما قبل ثورة العلم واختراع الآلة، وكان لا بد من مواجهة التحدي والقبول بهذا الثمن الذي ندفعه الآن من شح مواردنا المائية، وهي قضية برغم خطورتها ليست مستعصية على الحل، وإذا كان العلم وراء ظهور هذه الأزمة فإن العلم هو الذي يتولى وضع الحلول لها، لقد اخترعت لنا التقنية الأجنبية وسيلة جديدة هى تحلية مياه البحر، التي أسرعنا من فورنا وقبل شعوب العالم الآخر لاستخدامها برغم تكلفتها الكبيرة وسبقنا الجميع للشراب من ماء البحر لأننا أكثر احتياجا للماء منهم. ونحن بقدر ما نمتلك من صحاري فإننا ننعم أيضا بشواطئ تحيط بعالمنا العربي من جميع أركانه وتظل على أهم محيطات وبحار العالم.

وإذا كان الغرب قد استثمر بعض موارده في اكتشاف هذه التقنية التي تزيل ملوحة ماء البحر فهو لم يفعل ذلك إلا بدافع الربح والتجارة، ولم يفعله تلبية

لحاجة ضرورية من حاجاته، ولذلك فقد ظل تطوير هذه التقنية بطيئا ومحدوداً، فلدى بلاد الغرب من الموارد المائية ما يغنيها عن استخدام هذه التقنية، وليس غريبا أن بعض المؤسسات الغربية التي تتاجر بمعامل تكرير ماء البحر تمتنع عمداً عن تطوير هذه التقنية وتبسيط استعمالها لكي يبقى الأمر احتكاراً لها ولكي لا يضيع عليها مردودها الاقتصادى. وإذا كانت قضية الأمن المائي تكتسب بالنسبة لنا أولوية عن كثير من القضايا الأخرى فقد بات تطوير هذه التقنية أمراً يخصنا دون غيرنا ومن حقنا وواجبنا أن نستثمر ما يمكن من مواردنا للمضي بهذا الانجاز العلمي إلى حده الأقصى.

ولا أدرى لماذا تأخرنا في عمل عربي مشترك لتطوير هذا الاختراع الذي يهمنا بأكثر مما يهم شعوب أخرى لآن أي مبلغ من المال نسخره لتنمية هذا المورد وتطوير هذه التقنية والانتقال بها

من تكلفتها العالية إلى أن تصبح قليلة التكلفة والانتقال باستعمالها المعقد إلى أن تصبح في متناول استعمال الفلاح الفرد إنما هو استثمار سوف نجنى أرباحه اليوم بمثل ما سيجنيها أجيالنا المقبلة وسنحقق مردودا لأوطاننا ومجتمعاتنا بمثل ما نحقق مردوداً للبشرية جمعاء. إن تطوير هذه التقنية يصبح الآن اختياراً وحيداً أمامنا لتحقيق أمننا المائي والغذائي وضمان الاستقرار والرخاء لمجتمعاتنا وتحرير شعوبنا من الاعتماد في غذائها على إنتاج وموارد الشعوب الأخرى وإنجاز استقلالنا الاقتصادى الذي بدونه يصبح استقلالنا السياسى ذاته مهدداً بالمهالك والأخطار.

إن الأمر بحاجة إلى استنفار مواردنا البشرية وما أكثرها ومواردنا الاقتصادية قبل نضوبها وإنشاء مؤسسة علمية تتكافأ وحجم وأهمية وخطورة هذه القضية.. تسهم كل البلاد العربية في تمويلها وتكون

بداية العد العكسي نحو تأمين موارد من الماء لا تنضب ولا تنفد.

- ٦٨ -

خلال إقامة في بريطانيا امتدت عدة أعوام كنت في مرحلة من مراحلها أتنقل بين عائلات تؤجر غرفا في بيوتها للغرباء والطلبة الوافدين من أمثالي لم أسمع أثناءها بأن عائلة بريطانية واحدة تدفع إيجاراً مقابل البيت الذي تسكنه (اللهم إلا في حالات نادرة وعند الانتقال المؤقت إلى مدينة أخرى).

إن كل ما تدفعه العائلات كل شهر هو قسط ثمن البيت الذي حان استحقاقه لأن شراء البيت في بريطانيا لا يقتضى سوى تدبير دفعة أولى ثم تتولى جمعيات الاسكان تقديم قرض لتغطية ثمن البيت يتم تسديده على مدى أكثر من عشرين عاماً، وبذلك فقد صارت هذه العائلات في مأمن مما يطرأ على أثمان

العقارات من ارتفاع وما يغمر أسواقها من مضاربات وأزمات وبدلا من أن تدفع العائلة إيجاراً فهي تدفع قسطا من تمليك ثمن البيت الذي أصبح ملكاً لها تتصرف فيه وتضيف إليه وتحدث ما تشاء من تحسين أو تغيير أو تعديل عليه وهو إجراء يوفر على المجتمع إهدار الكثير من الإمكانيات فيما يحدث من مشاكل ونزاعات ومحاكم بين أصحاب البيوت الذين لا يكفون عن المطالبة بدفع الإيجار أو إخلاء البيوت وبين المواطنين الذين دفعتهم الحاجة إلى السكن بالإيجار علاوة على أن من يسكن بيتا يكون ملكه ومكان استقراره الدائم يحرص بطبيعة الحال على صيانته ونظافته بعكس البيوت المؤجرة التي يتنازع سكانها وأصحابها عمن يتولى الصيانة والنظافة مما يؤدى إلى الإهمال والتسيب وهو إجراء يكفل استقرار للمواطن الذي ارتاح من مشكلة الإيجار فلم يعد يخشى أن تطارده لعنة حكم يصدر ضده يرمي به في

الخلاء بكل ما يعنيه هذا الاستقرار من مردود على استقرار المجتمع وعافية المواطن النفسية وهو يفرض نوعاً من الولاء للمنطقة التي يسكن بها المواطن فيحرص على تنميتها ويشارك في أنشطتها العامة ويسهم عن رضا في الجهود التي تسعى لتطويرها وينخرط في العمل الاجتماعي الذي يهتم بحدائقها وأنديتها وملاعب أطفالها بعكس من يسكن في بيت ليس له ومنطقة لا يحس بأي انتماء نحوها لأنه لا يدري إن كان مقيما بها أو راحلاً عنها. حقاً إن هذا القسط يبقى التزاما واجب الدفع والنفاد وقد يتعرض المواطن الذي يعجز عن الإيفاء به لما يتعرض له المتاجر الذي يتأخر عن الدفع ولكن الفرق بينهما هو أن من يسكن بيتاً كهذا يستطيع في مثل هذه الحالات أن يبيع ويسدد أقساطه ويستفيد بما تبقى من ثمنه في شراء سكن أقل ثمنا، فهو نوع من الادخار والاستثمار ولا شك أن بعض الشركات

التجارية في بلادنا العربية تطبق إجراء مشابها لهذا الإجراء ولكنه يبقى محكوما بحدوده الضيقة وشروطه الصعبة التي لا تجعله متيسراً لكل الناس فالظاهرة الغالبة في بلاداننا هى ظاهرة الإيجار حتى لا يكاد ينجو منها صغير أو كبير بل تفاجأ بأن شخصيات كبيرة في المجتمع ممن أمضت عمراً في الخدمة العامة تعاني من مثل هذه المشكلة وتصرف جزءاً من وقتها في معالجة المشاكل التي تنشئ عن السكن المؤجر ولا أدرى لماذا لا تستفيد مجتمعاتنا العربية من تطبيق هذه الطريقة في توفير المساكن للمواطنين والحد من ظاهرة الإيجار التي باتت قدرا لا فكاك منه بالنسبة لأغلب أبناء المجتمع بكل ما تمثله هذه الظاهرة من استغلال إذا لم تحكمها أكثر القوانين حزما وصرامة وما تلحقه بالمواطن من إرهاق وما تخلفه من توتر اجتماعي. فالسكن باعتباره حاجة أساسية من حاجات الإنسان يجب أن نحيطه بكل

الضمانات التي لا تجعله مجالاً للابتزاز أو الاستغلال. إن طموح أغلب المواطنين يتركز في تأمين بيت لأولادهم ويظل المواطن في بلادنا يشقى ويتعب مدى العمر قبل أن يصل إلى تحقيق هذا الهدف وقد يموت قبل بلوغه لما صار يحكم عملية الحصول على بيت في بلادنا من عقبات وتعقيدات، وبعملية بسيطة ميسورة يتحول فيها الإيجار إلى قسط من ثمن البيت ينتهي كل هذا العناء ليصرف الناس جهودهم بعد ذلك إلى قضايا أكثر منفعة وجدوى.

إن بعض الحكومات العربية تبني المساكن الشعبية التي تقدمها مجاناً أو بأثمان رخيصة للقطاعات الفقيرة من أبناء الشعب الذين يسكنون الأكواخ أو الخيام وإذا كان هذا الإجراء قد استهدف القضاء على جيوب التخلف وتحقيق نوع من التوازن الحضارى بين فئات الشعب فهو إجراء استثنائى وموقت ولم يكن بامكانه أن يصل إلى كل المواطنين

الذين تسحقهم طاحونة البحث عن سكن آمن، لقد ظل أغلب المواطنين خارج هذه المكارم وبالذات أصحاب الدخل المحدود من أبناء الطبقة الوسطى الذين يدفعون ثمن كل ما يحدث من أزمات، ولقد آن أن نستفيد من تجارب الأمم الأخرى في العثور على حلول جذرية لهذه المشكلة.

نظرت إليه مندهشا عندما قال مكملا حديثه :

ـ لقد جاء لي فلان وهو رجل لو جاء يطلب عنق أحد أولادي لما ترددت في تقديمه له.

كان هذا الصديق الذي يتولى منصبا إداريا رفيعاً يشرح لي كيف أنه أحيانا يرتكب مخالفات إدارية كثيرة بسبب إحراج الأصدقاء متحملاً في سبيل ذلك تبعات قد تعرضه للأذى، ولولا تفهم الرؤساء لما نجا من العقاب والمحاسبة، وكان آخر هذه المخالفات

بسبب صديق لا يستطيع أن يرد له طلباً حتى لو جاء راغباً في عنق ابنه.

لم أندهش لأنه يعتبر أولاده ضمن ممتلكاته فذلك شيء لم يعد يثير دهشتنا في هذه المجتمعات الشرقية التي حافظت على عادات بدائية منذ عصر وأد البنات ولكن ما أثار دهشتي هو أنه اعتبر هذه الإدارة الحكومية أيضاً إحدى ممتلكاته بحيث لا يستطيع أن يرد صديقاً أو قريباً أو رجلاً صاحب أفضال عليه ممن يطلبون خدمة خاصة على حساب القوانين وحقوق الآخرين وواجبات الوظيفة والتزاماتها، لقد اعتبر أن الأمر يمس كرامته الشخصية لو أنه رفض مطالب الرجل أو اعتذر له عن تلبية حاجته لأنها تتعارض وتتناقض مع واجبات الوفاء والأمانة لهذه المسئولية التي كلفه بها المجتمع، فالمجتمع غائب تماما عن ذهن هذا الرجل كما أن الأمانة لا تكون أمانة لصالح الوطن وصالح المجتمع

بأكمله والوفاء لا يكون وفاء للوظيفة أو للخدمة العامة التي يشترك في مكاسبها كل الناس وإنما يكون وفاء وأمانة إذا ما أخل بهذه الواجبات الوظيفية وأضر بهذه الخدمة العامة لحساب ما يسميه وفاء لأهله وأصدقائه وتنتفي الحدود بين الخاص والعام وبين حق المجتمع وحق الأقارب والاصدقاء لدى أصحاب هذه الوظائف من أمثال هذا الرجل وهو لم ينل تأنيبا أو إنذاراً أو عقاباً بسبب هذه المخالفات لأنه عندما تعرض للمحاسبة دفع بهذه الدفوع الوجيهة التي أفحم بها سامعيه قائلاً :

ـ لقد جاءنى فلان وهو رجل إذا ما طلب عنق.. الخ. فيحوز بذلك على الثناء والإعجاب بدلا من التوبيخ والعقاب.

إننا نعتمد نظاماً حديثاً في الإدارة وننشئ أبنية مجهزه بآلات الاتصال العصرية والأدمغة الآلية ونضع لهذه الإدارات لافتات كبيرة نقتبسها من

قاموس العصر كما نضع برامج طموحة للتنمية والتعمير والبناء والتحديث والتصنيع وغير ذلك من مخططات ومشاريع، ولكن المستوى يبقى متخلفاً عن العصر مدموغا بالطابع القبلى والعشائرى مليئا بأمراض المحاباة والمحسوبية التي نضع لها أسماء خادعة ونلبسها ثياب الوفاء والأمانة والرجولة والشهامة فيما هي نقيض الوفاء والأمانة والرجولة والشهامة وخيانة لأعز آمال وأهداف المجتمع وما ينشده من بناء وتعمير وتنمية وتحديث كما تشهد بذلك اللافتات والتسميات والعناوين.

ولا أعتقد أن هناك وصفة سحرية لعلاج هذه الأمراض التي تستوطن الهياكل الإدارية وتقضي على فرص التقدم والنهوض، فالعلاج لا يأتي إلا ضمن مخطط كبير يسعى لإتاحة أكبر قدر من الديمقراطية وحرية التعبير وإنشاء أجهزة الرقابة الشعبية والمجالس التشريعية والمنابر الصحفية القوية

القادرة على كشف الأخطاء والمخالفات وكل الممارسات الإجرامية التي تعبث بالقوانين وتتعارض مع أهداف وطموحات المجتمع.

- ٧٠ -

لا أتصور أن هناك محنة أكبر من محنة إنسان يضع أذنيه على المذياع وينتظر أن يسمع في كل ساعة من ساعات الليل أو النهار خبراً يعيد النظام إلى حياة مزقتها الفوضى ويعيد الاستقرار إلى عمر ضاع في أرض الشتات دون أن تسعفه الأقدار بسماع ذلك الخبر برغم تبدل الفصول وتعاقب الاعوام.

يفتح عينيه أول ما يفتحهما في الصباح على المذياع بأمل أن يأتي إليه بذلك الخبر ثم يؤجل انتظاره إلى المساء بأمل أن تكون نشرة الأخبار كريمة معه هذه المرة، فتنهي مسيرة القلق والضياع

بخبر صغير ضمن أخبارها الموجزة، وعندما تنتهي النشرة ولا يسمع شيئا يرضي توقه وانتظاره ويطفئ حرقة القلب ولوعته يقفل المذياع وينام طاويا قلبه على حلم أن يسمع الخبر في صباح اليوم التالى وهو لا يمل لعبة الانتظار والترقب وإدمان الاستماع للأخبار لأنه لا يملك خياراً آخر.

يتبدد العمر وتتبخر أبهى لحظاته، ومع ذلك فهو يمضي في الدنيا بأمل أن تحمل له كل لحظة حلاً أو خبراً يأذن بأن يعيش حياته كبقية البشر.

لعله مواطن فلسطيني ينصب خيمته على تخوم الوطن أو لعله مهاجر لبناني فر هارباً بأطفاله من جحيم الحرب الطائفية أو لعله مواطن عربي آخر ارتبطت حياته بإحدى هاتين القضيتين أو بما يرافقهما من قضايا الغربة والمنفى والعسف والاستبداد ولم يعد يجد لحياته معنى إلا إذا تم إصلاح العطب الذي أفسد عليه طعم الحياة.

ينتظر هذا العربي خبرا لا يأتى وينتظر زمنا لا يأتى.

ويعيش حياة مؤجلة مؤقتة حياة لا حياة فيها فإن كل شيء صار معلقا ومجمداً بأمل أن تستأنف الحياة دورتها عبر استماعه لهذا الخبر.

إنه كالمسافر في نفق طويل ينتظر مع كل خطوة يخطوها أن يرى ضوءاً ينبئ بنهاية النفق ولكن النفق يواصل امتداده، والظلام يواصل انتشاره.

والرجل يواصل سفره دون أن تظهر نقطة ضوء ولو أنه عرف منذ البداية أن النفق سيطول إلى هذا الحد لما استطاع أن يسير خطوة واحدة ولو أن أحدا قال لهذا المواطن اللبناني عند بداية الحرب إنها ستطول أربعة عشر عاماً لما استطاع تصديق هذه التوقعات ولو أن إنسانا جاء لهذا المواطن الفلسطيني الذي نصب خيمته على الحدود محتفظا بمفتاح بيته كي يعود إليه وأخبره أن أربعين عاما سوف تمضي

دون أن يرى الوطن كان سينشب أظافره في عنقه نتيجة ما جاء يحمله من شؤم ونحس، ومع ذلك فقد ظل هذا المواطن يعيش حياته ممزقاً بين لحظات الأمل والترقب حتى عبر كل هذا الزمن وأمضى كل هذه السنين وظل يحاول إفراغ مياه الحيرة بملاعق الشاى في صبر وأناة وقوة احتمال ليس لها مثيل.

ولعله الآن يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يطول عمر المحن والكوارث في عالمنا العربي حتى يضرب هذه الأرقام القياسية الخرافية؟

وإذا كان عمر الزلازل يدوم بضع دقائق وعمر الفيضانات يدوم بضعة أيام، فإن أعمار الحروب الفظيعة التي عرفها العالم والكوارث الأخرى التي صنعها البشر غالباً ما تنتهي بعد شهر من اندلاعها بما في ذلك حربان عالميتان كان الحد الأقصى لأكثرها فظاعة ورعباً وطولاً هو خمسة أعوام فلماذا يطول عمر الحروب والمحن والنزاعات

في وطننا العربي دون غيره من أوطان العالم، وإذا كانت حرب البسوس التي اشتعلت بين قبائلنا من أجل ناقة واحدة قد استمرت أربعين عاما فكم يا ترى سيكون عمر هذه الحروب والنزاعات التي وراؤها أكثر من جمل وأكثر من ناقة؟ وإذا كان الأمر قدراً لا فكاك منه فهل نطلب من ا أن يطيل عمر المواطن العربي ألف عام لكي يجد فسحة من الزمن للعيش والحياة بعد انقضاء المحن والنكبات والنكسات !

ويبقى الفضاء عامرا بإشارات الاستفهام .

ويبقى هذا المواطن ينتظر خبراً لا يأتي وزمنا لا يأتي، ومع ذلك يلصق أذنيه بالمذياع كل ساعة من ساعات الليل والنهار.

هناك حالة تصيب الأوطان وتداهمها مثل الكوارث الطبيعية والحوادث الفاجعة أو الأمراض

التي تأتي فجأة فتطغى أثناء ذلك المنافع الشخصية والمصالح الذاتية والسعى وراء المكاسب الخاصة التي تأتي دائما على حساب مصالح المجتمع ومكاسبه وتكون تخريبا وتدميراً لا لموارد الأوطان واقتصادياتها فقط، وإنما تدميرا وتخريبا للذمم والقيم والأخلاق وتمزيقا لكل الروابط الإنسانية التي تجمع بين أبناء المجتمع وتوحد سعيهم من أجل الخير والتقدم، وتفريطاً في كل المعاني التي يبني بها الناس أوطانهم ويؤسسون بها قاعدة لنهضتهم وانطلاقهم. إنها حالة مرضية ينتفض لها جسم الوطن كله ويصبح كالمصاب بالحمى فتتعطل أثناء ذلك القوانين التي تحرم السرقة والرشوة والانحراف والمحسوبية والصفقات المريبة المشبوهة والاتجار بالبضاعة المغشوشة لأن حالة من التواطؤ تغلف المجتمع بأسره ولأن الفساد مد خيوطه ونشر شباكه عل كل المستويات وأنتج هواء أسود صار يلوث كل المواقع

والأماكن ويتسلل إلى كل الخلايا والمراكز العصبية ويغلف بدخانه الكثيف الذمم والضمائر والقلوب، ولأن القيم الأخلاقية ذاتها أصابها الخلل والعطب فصار الناس ينظرون بإكبار لهذا الغفير الذي أثرى فجأة، وبنى لنفسه عمارة واشترى لأهله مزرعة وأصبح بين يوم وليلة من أغنياء القوم وسادة المجتمع وصار الإنسان الشريف يمشي بمحاذاة الحائط محاطا بمشاعر الحسرة والأسى لأنه مهما بلغ اجتهاده وكفاحه ومهما كان عمله أو مهما كانت ثقافته ومواهبه ومؤهلاته فلن توصله إلى أي مكان طالما حافظ على أمانته ونزاهته وشرف مسلكه ومقصده. حالة مرضية تصيب المجتمع بأكمله حتى يصبح الانحراف هو القاعدة وتصبح الاستقامة والأمانة هما الشذوذ والاستثناء، تختفي القيم النبيلة الشريفة الصادقة وتتوارى عن الأنظار لتترك المجال فسيحا

للغش والكذب والتزوير والمحسوبية والمحاباة تتجول وحدها في الأسواق دون رقيب.

ولا شك أن هذه الحالة التي نستيقظ فجأة على وجودها معنا، وكأنها داهمتنا على حين غفلة لا تاتى دون تمهيد يسبقها إنها مثل بناء فاسد يتآكل مع الزمن وينخره العطب وإن بدا متماسكاً ثابتا فلا نرى خرابه إلا عندما يتقوض وينهار، لقد وجدت هذه الحالة استعدادا لدينا ومناخا مهد لها وساعدها على البقاء إنها تعبير عن سقوط المشروع الذي يحكم البلاد ويدير دواليب المجتمع وعلامة على إفلاس ذلك النظام لأن أي نظام من أنظمة الحكم إنما هو تنفيذ لعقد اجتماعي وتعبير عن منظومة من القيم والقواعد والنواميس. وعند إفلاس هذا النظام وفقده لمشروعيته وسقوط الدعائم التي يرتكز عليها ينفرط ذلك العقد، وتعم الفوضى الآراء والأعمال والممارسات بمثل ما تعم الفوضى القيم والقواعد والنواميس والمعايير التي

يحتكم إليها الناس لتحقيق الأهداف الكبيرة التي يجتمع من أجلها أبناء المجتمع ويتحلقون حولها باعتبارها أهم العوامل لترابطهم وتوحيد مسيرتهم ورؤيتهم فيفقدون الهدف والاتجاه ويمضى كل واحد منهم تائها ضائعا يبحث عن خلاصه الشخصي أو يتدبر وسيلة للنفاد بجلده وتحقيق مكسب لنفسه حتى وإن تناقض وتعارض مع النفع العام.

إننى بعكس كثير من الناس الذي يقولون بصعوبة علاج مثل هذه الحالة المرضية أرى أنها حالة غير ميئوس منها لأننا نعرف أسبابها ودوافعها ونعرف الفيروس الذي جاء بها وما إن نجد وسيلة للقضاء على هذا الفيروس حتى تعود الخلايا الحية إلى التوالد من جديد ويستعيد الجسم المريض الصحة والعافية في أقصر الأوقات. إن القيم الشريفة لا تموت في قلب الإنسان مهما أخفاها الغبار وغطاها

الرماد وستعود مرة أخرى للتوهج والاشتعال بمجرد أن نجد وسيلة لنفخ هذا الغبار أو هذا الرماد.

- ٧٢ -

إذا كان خطابنا يحفل بكلمات الإطلاق والتعميم فإن أكثر أنواع التعميم ظلما واجتراء ومجافاة للحقيقة هو ذلك التعميم الذي ينال الأمم والشعوب، يتكئ الواحد منا على مقعده ويرتشف نفسا من سيجارته ويطلق مع الدخان نعوته البشعة التي تنال من سمعة شعب بكامله فيسميه جبانا أو بخيلاً أو فظا غليظ القلب دون استدراك أو استثناء أو محاولة للاحتفاظ.

يقول قولته الظالمة الجارحة بحزم وجزم ويدين شعبا بكامل فئاته وأفراده دون أن يرمش له جفن أو يستغفر ا عما ارتكبه من إثم وضلالة وتسأله كيف اهتدى إلى هذه النتيجة الحاسمة وكيف توصل إلى هذه الإدانة الشاملة الكاملة التي لا توفر

عالما أو جاهلا من أبناء ذلك الشعب وكأنه اختبر كل أفراده وعاينهم واحداً واحداً فيشير إلى حادثة قرأ عنها أو زيارة قام بها أوصلته إلى هذه النتيجة، وهكذا انطلاقا من جزئية صغيرة تافهة استطاع أن يصل إلى هذه الاحكام القاطعة الناجزة.

ولقد صار مثل هذا الحديث للأسف الشديد مثل ظاهرة لا تقتصر على الأميين ومحدودي الثقافة، وإنما تجدها تنتشر في أكثر المنتديات ادعاء للعلم والثقافة.

وهي نعوت لا تصيب فقط تلك الشعوب التي تأزمت علاقتنا بها في بعض المراحل التاريخية الكولونيالية بحيث يمكن أن نقول إن مثل هذه النعوت إنما جاءت كرد فعل على تلك الفواجع القديمة وإنما تصيب في بعض الأحيان شعوبنا العربية ذاتها دون أن يشعر قائلها بأدنى إحساس بالخجل أو العار.

إن الإنسان العاقل يتردد كثيراً قبل أن يصدر حكما كهذا على شخص واحد مهما كان هذا الشخص قريبا ومعروفا لديه، فكيف يستطيع هؤلاء الناس إصدار الأحكام على أمم وشعوب بكل فئاتها وطبقاتها.

إن الأمر بحاجة إلى مقدار هائل من الغرور وخداع النفس والكبرياء الكاذب حتى يستطيع المرء أن يضع نفسه في هذا الموضع، ويسمح لها بإصدار هذه الأحكام والنعوت.

ولا شك أن هؤلاء الناس يملكون هذه المواهب جميعها لأنهم يفعلون ذلك كل يوم ودونما إحساس بالحرج أو الارتباك.

وطالما استطاع الواحد منهم أن يدين شعبا بكامله، فمن السهل بعد ذلك أن يصدر أحكامه على فئات المجتمع دون جهد أو عناء. فهو له نعت للفنانين وآخر للأدباء وثالث للسياسيين ورابع

للحقوقيين وخامس للمعلمين وسادس للنساء. ولن تستطيع بعد ذلك أن تبني أرضية للنقاش أو الحوار مع مثل هؤلاء الناس. فقد تحول الحديث إلى هذر وتحول الكلام إلى شيء أشبه بهذيان المرضى والمحمومين ولم يعد بإمكان الإنسان العاقل إلا أن يسأل ا العافية والهداية.

- ٧٣ -

من بين الجمعيات الكثيرة في الغرب التي تمنيت أن أجد لها شبيها في بلادنا العربية جمعية أصدقاء الأرض، فهي جمعية ينضم إليها كل المدافعين عن المساحات الخضراء التي يهددها الآجر والأسمنت والحديد وكل أصحاب القلوب النبيلة ممن يحبون الأشجار ويرتعبون لهذه المجازر التي يرتكبها البشر كل يوم ضد البساتين والغابات والحقول.

تنادوا جميعهم لإنشاء هذه الجمعية التي صارت تعبيراً عن صوت الضمير تقف في وجه المؤامرة وتدين الجريمة وتنظم المسيرات الاحتجاجية ضد شركات العقار الوحشية وتنشر الكتب والصحائف التي تفضح المخططات الرامية إلى قتل النماء والاخضرار، وترفع القضايا في المحاكم ضد كل من أجرم في حق أمنا الأرض وهى تذهب إلى أكثر من ذلك فتدافع عن الحيوانات التي تعذب في المختبرات العلمية والأخرى التي تتعذب بسبب نهم الإنسان وشراهته وتسعى لإنقاذ الطيور التي تتعرض للفناء بسبب بنادق الصيادين. ولكن يبقى الهدف الأساسي لهذه الجمعية ولجمعيات أخرى مماثلة لها المحافظة على الطبيعة وحمايتها من هذه النزعات التخريبية التي تعمر القلب البشري. إن من حق جميع الناس بناء البيوت وإقامة العمائر والتوسع في التشييد والعمران ولكن ليس بالضرورة على حساب الأشجار

واغتيال المساحات الخضراء إننا لم نستنفد بعد كل الأراضي اليباب ولم ننته من إزالة أنقاض البيوت القديمة لتكون مكانا لبناء العمارات.

ولا أعتقد أن هناك وطنا تضرر من مثل هذه المجازر مثل الوطن العربي فبرغم ندرة الأشجار وضيق المساحات الخضراء إلا أننا أكثر الناس شراسة في التعامل معها حتى صرنا جميعاً نؤلف جمعية كبيرة قوامها كل أفراد الشعب هي جمعية أعداء الأرض وصار من السهل أن نقضي على مزرعة بكاملها من أجل بناء بيت واحد وأن نحرم المدينة من إحدى حدائقها لكى نبني مركزاً للشرطة أو محطة للوقود أو مكانا لوقوف الحافلات ونزهو ونفخر بالبنايات التي نقيمها على أنقاض ما لدينا من مزارع وبساتين بينما نملك أكبر صحراء في الدنيا. عملية تخريبية نقوم بها كل يوم دون أن تسمع صوتاً

يرتفع من أجل إيقاف هذه الجرائم التي نرتكبها ضد أنفسنا.

ولا أدرى إذا كان هناك في الوطن العربى ما يكفى من البشر الذين يحبون الأرض ويعتزون بالأشجار بحيث يؤلفون كتابا قانونيا لإنشاء هذه الجمعية ولكننى على يقين بأنه حتى أولئك الذين شاركوا في القضاء على الأشجار سوف يحسون بتأنيب الضمير وسوف يحاولون التكفير عما ارتكبوه من آثام وذنوب ضد الأرض والطبيعة في بلادهم فينخرطون هم أيضاً في هذه الجمعية التي تنادي بإيقاف المذابح ضد الأشجار بل وتسعى إلى تعويض الخسائر القديمة بالدعوة إلى حملات التشجير التي لم نعرف في السابق كيف نقوم بها. إن الشجرة كائن يتنفس وينمو والتعامل معها لن يأتى بأية نتيجة إن لم يكن بدافع الحرص والحب والرغبة في أن نرى هذه الشجرة تنمو وتزدهر، ولذلك فإن الأمر بحاجة إلى

تأسيس علاقة جديدة بين الإنسان العربي والشجرة وستكون هذه هي أخطر المهمات التي ستواجه جمعية " أصدقاء الأرض العربية " التي أرجو أن ترى النور قبل القضاء على آخر شجرة في الوطن العربي.

- ٧٤ -

ندور مع دورة الحياة ونسلم أنفسنا لتيارها الجارف تداهمنا موجة بشرية يتدفق بها الشارع فتأخذنا معها وتمضى بنا حين شاءت، نركض مع الراكضين، ونندفع مع هدير الموج البشري حتى نكتشف في نهاية المطاف أننا ذهبنا باتجاه غير الذي نريده.

ولذلك فإنه يبقى أمراً ضرورياً أن نقف بين الحين والآخر وقفة تأمل واستيعاب ومراجعة وسط المشاكل والهموم والاستغراق في العمل والدخول في حمى السباقات لا بد أن ننشل رؤوسنا من هذا الخضم

ونقف لكى نتأمل الطريق ونقرأ الاتجاهات ونتأكد من أننا نسير بالاتجاه الصحيح.

إن الأخطاء الكبيرة في حياتنا غالباً ما تبدأ بانحراف صغير، وهذا الانحراف الصغير كما هو الحال مع الرسوم الهندسية ما إن يتواصل ويستمر حتى يصبح انحرافاً كبيراً يجب تصحيحه، ولهذا فإن الحكمة تقتضي أن ندرك هذا الانحراف منذ بدايته قبل أن يصبح شيئاً غير قابل للمعالجة أو التصحيح، وإذا كان هذا الكلام ينطبق على حياة كل الناس فهو يكتسب أهمية خاصة لدى المشتغلين بالقضايا العامة لأن الانحراف هنا سوف لا يطول حياتهم فقط، وإنما حياة ومصائر مجتمعات بكاملها، وهم أكثر عرضة من غيرهم للدخول في هذه المنعرجات التي تؤدى إلى طريق غير الطريق الذي أرادوه لأنفسهم وشعوبهم، فالضغوط عليهم كثيرة والتيارات التي تتنازعهم عاتية جارفة، والزحام من حولهم يصنع طوقاً يحجب عنهم

الرؤية، ولذلك فنحن بحاجة إلى هذه الوقفة أكثر من أي إنسان آخر لا يتحمل مسئولية أحد سوى نفسه، وقفة يرفعون خلالها رؤوسهم من فوق الزحام يستشرفون علامات الطريق ويتأكدون من صحة الاتجاه ويعيدون تصحيحه إذا وجدوا فيها انحرافا بسيطاً قبل أن يتفاقم الانحراف وقبل أن يفوت الأوان.

وهذا للأسف الشديد ما يغيب عن بعض المسئولين والقياديين في عالمنا العربي فهم غالباً ما يمضون مع التيار ويغرقون في التفاصيل وينشغلون بقضايا الحكم اليومية ويرزحون تحت ضغوطها الكثيرة دون إطلالة مميزة على الغايات والأهداف أو وقفة تأمل ومراجعة يتأكدون فيها من سلامة الاتجاه حتى يستيقظوا على صوت الشارع وهو يئن ويتوجع وجماهير المواطنين يصرخون غضبا وسخطاً يطالبون بالتغيير والتصحيح.

تأخذهم المفاجآت ويعبرون عن اندهاشهم لما حدث ويبحثون عن المؤامرات التي أيقظت هذه الفتنة والأصابع الأجنبية التي حركت الجماهير دون أن يكون الأمر بحاجة إلى اندهاش أو بحث عن المؤامرات والأصابع فهو محصلة طبيعية لأسلوب الحكم الذي لا يراجع نفسه ولا يتأمل مسيرته ولا يقف قليلاً ليصحح الخطأ منذ بدايته.. إلى أن يستمر ويتواصل ويتحول إلى كارثة.

- ٧٥ -

عندما نتحدث عن الحور ونطالب به كقيمة يجب ترسيخها وتأكيدها لتصبح ركيزة أساسية من ركائز الحياة الفكرية والسياسية تتيح لكل صاحب رأي أن يعبر عن رأيه إثراء للمسيرة وتعميقاً للفكر وتحقيقا لمبدأ المشاركة والتفاعل بين الآراء الأفكار.

فإننا ننسى أحيانا أن للحوار شروطه وآلياته التي لا يكون الحوار بدونها حواراً، وإنما مجرد مناسبة لتبادل الكلام والخطابات، وأهم هذه الشروط والآليات هو " الإنصات "، أن نتعلم كيف ننصت جيداً للرأي الآخر ونتمثله ونعي جوانبه الإيجابية بمثل ما نعي جوانبه السلبية، وإذا كنا نكثر من الحديث عن ضرورة احترام الرأي الآخر وإتاحة الفرصة أمامه للتعبير فإن هذا الاحترام لا يكون إلا بالإنصات إليه والاهتداء إلى ما يمكن أن يضيفه من جديد لقناعاتنا وآرائنا السابقة وما يمكن أن يلاحظه أي مراقب للمنتديات العامة والمؤتمرات السياسية والثقافية وحتى فوق صفحات الرأي في الصحف والمجالات هو غيبة هذا " الإنصات " للصوت الآخر حيث تتحول هذه المنابر والمنتديات إلى أسواق للكلام ومباريات في إلقاء الخطب دون قدرة حقيقة على التفاعل وتبادل الخبرات والمنافع ويسمع الواحد منا حديثاً مخالفاً. أو

يقرأ مقالاً يحمل رأيا معارضاً فلا يبحث عن صدق الدوافع ويتأمل صحة البراهين التي يسوقها هذا الحديث أو المقال، وإنما يبحث فقط عن المثالب ونقاط الضعف لكي يهاجمها ويبطل رأي صاحبها. لقد ظلت الفكرة المسبقة التي يحملها تسيطر على عقله وتلون رؤيته لأفكار الآخرين وآرائهم، ويبقى سجينا لها غير قادر على أن يغذيها ويثريها بهذا الحوار الناقص الذي فقد أهم شروطه فلم يرتفع إلى مرتبة الحوار.

ومن هنا ندرك أن الإنصات مازال غائبا عن منتدياتنا الفكرية والسياسية وأن هذا الحوار الذي نريده ونطالب به لن يتحقق ما لم نكتسب هذه الفضيلة التي تمنح الحوار جناحه الثاني الذي لن يستطيع الارتفاع فوق الأرض إلا به، ونسمع الرأي الآخر فلا نرفضه لمجرد أنه رأى يخالفنا ويقدم الموضوع من وجهة نظر لا تتفق مع أفكارنا، وإنما ننصت إليه

ونستفيد منه ونتيح مساحة في عقولنا تتسع لما يمكن أن يحقق لنا هذا الإنصات من إضافات أو جوانب كانت غائبة عنا بحيث نكون قادرين على تطوير آرائنا وأفكارنا بناء على المعطيات الجديدة التي نجدها في أقوال الآخرين وأحاديثهم.

إن الإنصات هو أيضاً ملكة بحاجة إلى تدريب وتربية واكتساب، ولن نستطيع تحقيق ذلك إلا بمزيد من المنابر ومزيد من الحوار ومزيد من احترام الرأي الآخر وأن نفتح الأبواب والشبابيك لمزيد من الضوء يكتسح العتمة ويكنس ظلام السنين.

العاهة التي أورثها لنا الأسلوب التلقيني في التعليم هى الفشل في ربط الأشياء بمسبباتها ودوافعها إلى أن صارت الإجابة السهلة التي يقولها لنا أطفالنا عندما نطلب منهم تعليلا أو تفسيراً لأي تصرف أو

سلوك يقوم به هو هزة من الكتفين مصحوبة بكلمة " كذا " أو " هكذا " التي يقولونها بمختلف اللهجات المتداولة في الوطن العربي.

ويكبر الطفل وتكبر معه هذه الكلمة التي قد يجد لها مرادفات أخرى ولكنها تبقى تفسيرا سحريا لأفعاله وسلوكه بل تفسيراً جاهزا ناجعا لكل ما يواجهه من قضايا تستحق التأمل والتحليل والغريب في الأمر أننا نتقبلها منه وكأننا نحن أيضاً صرنا مقتنعين بجدوى هذا التفسير القصير الذي يجعل كل شيء في كلمة صغيرة واحدة لا معنى ولا دلالة لها.

لقد عرفت مناهج التعليم في مدارسنا الكثير من التطوير والتجديد، ولكن الأسلوب التلقيني الذي ورثناه منذ أزمنة الكتاتيب ظل هو الأسلوب الغالب في معظم المراحل الدراسية خاصة في مراحل التعليم الأولى، وفي المناطق الريفية حيث يستخدم المدرس الحق المطلق في فرض الوصاية على عقول تلاميذه

وأعتقد أن بداية إصلاح تربوي تقتضي إعلان الحرب على هذه الكلمة ليس هناك في القاموس كلمة واحدة اسمها " كذا " تصلح تعليلاً وتفسيراً لكل مظاهره السلوك الإنسانى. هذا ما يجب أن نعلمه لأطفالنا وهذا ما يجب أن تقوله مناهج التعليم في مدارسنا أن المسألة ليست هينة أو سهلة كما قد يتبادر إلى أذهاننا، فالأمر يقتضي ثورة تعليمية حقيقة لكي نستطيع أن نقضي على هذه " الكذا " التي نسمعها تتردد على أفواه أولادنا. إن الطفل الذي تعلم أن يقول هذه الكلمة سوف لن يستجيب بسرعة لمطالبنا عندما نسأله أن يشرح لنا السبب الذي دعاه لأن يهمل كتابة واجبه أو يترك الدراسة قبل انتهاء ساعات الدوام أو يشتبك في عراك مع زميل من زملائه سوف يكتفي حتى في مثل هذه المسائل التي لا تقتضى تحليلاً أو تفكيراً بأن يهز كتفيه قائلاً " كذا " وسوف يتلعثم ويرتبك، وهو يبحث عن كلمة أخرى يبرر بها هذا

السلوك، ولن ينفع عندئذ أن نصرخ أو نغضب أو نلجأ إلى أساليب التهديد والوعيد فالانفعال لن يزيد الأمر إلا صعوبة وتعقيدا والطفل يواجهنا الآن دون عون أو مساعدة من الدروس التي يتلقاها داخل الفصل الدراسي فهي جميعاً تغذي هذه الإجابة القصرية السريعة الحاسمة التي تستهين بالشروح والتفصيلات ولا تبحث عن الأسباب والدوافع. اقرأ الدرس فيقرأه، احفظه عن ظهر قلب فحفظه دون أن يعرف لماذا ينبغي عليه أن يقرأ ما قرأ أو يحفظ ما حفظ. وإذا سأل فلن يجد سوى الاستنكار والتهديد والمطالبة بالامتثال لأوامر وتعليمات الأستاذ.

إن أهم الإنجازات الحديثة في التعليم هو الحرص على أن يصبح التلميذ شريكا في العملية التعليمية حيث لا يكتفي المدرس بإتقان دور الملقن ولا يكتفي التلميذ بمجرد التلقي، وإنما يشتركان معاً في خلق حالة تستجيب لرغبات وميول التلميذ

وفضوله الفطري للمعرفة بمثل ما تتيح للمدرس الوصول إلى عقل هذا التلميذ بيسر وسهولة ودون عسف أو قهر.

- ٧٧ -

العرب هم أكثر الناس احتفالا بالساعات، ولعلهم أكثر شعوب العالم استخداما واستهلاكا لها. إنهم يجعلون منها هدايا يتبادلونها في الأعياد والمناسبات ويضعونها في معاصم أطفالهم الذين لم يصلوا سن الفطام كأنها تمائم تقيهم أعين الحاسدين وجلب الفأل الطيب.

ويستيقظون قبل صياح الديك للاستماع إلى إذاعة لندن بهدف تعديل ساعاتهم وضبطها على ساعة " بيج بن " ويستاء الواحد منهم إذا تقدمت ساعته دقيقة أو تأخرت دقيقة، وكأن نظام حياته سوف يتقوض وينهار.

والمفارقة العجيبة في كل ذلك هو أن هذا الاهتمام الكبير بالساعة لا يوازيه إلا إهمال للوقت واستهتار به حتى ليبدو وكأن هذا الاهتمام مجرد تعويض عما يحسون به من تقصير تجاه الوقت وعدم اعتناء به، بل يبدو أمراً غريبا كيف استطاع العقل العربي أن يفصل بين الساعة وبين الوقت بكل هذا الحسم وهذه الحدة فيعامل كلا منهما معاملة تتناقض مع الأخرى، ولا بد أن لهذا الاهتمام البالغ بالساعة دلالة غير تلك العملية النفسية التعويضية، بل إن هذا التعويض النفسى ذاته ينبئ بأنه ثمة علاقة خاصة ومتميزة كانت تربط بيننا وبين الوقت ذات يوم، ثم أصاب خلل ما هذه العلاقة أورثنا شعوراً بالإثم.. والتراث العربي حافل بالشواهد التي تؤكد وجود هذه العلاقة زاخر بالمنجمين والعلماء الذين اعتنوا بدورة الزمان ورحلة الليل والنهار وحركة الأفلاك والأقمار والنجوم وضبط الأوقات وتحديدها. الذين صنعوا

البوصلة واخترعوا المساطر ورسموا الخرائط للأرض والبحر والسماء وساعة هارون الرشيد ذات المهابة والفخامة التي أهداها لشارلمان ملك الفرنجة ما زالت شاهدا هي الأخرى على قوة تلك العلاقة وعمقها، كما أن التراث الأدبي العربي يمتلئ بالقصص والأمثال والتعابير التى تحض على احترام الوقت وتحتفل به وتشيد بأهميته وتدرك مدى خطورته في حياة الأفراد والشعوب. ولا شك أن ذلك كله لم يأت من فراغ وإنما جاء نتيجة حضارة لم تكن لتحقق انتصارها الساحق على كل مناطق التخلف وتزرع أعلامها في أقصى بقاع الأرض إلا بسبب الاعتناء بالوقت واحترامه إلى حد التقديس، وهو ينبئ بمدى المأزق الذي يعيشه عرب اليوم الذي انقطعت الأسباب بينهم وبين تلك العناصر في تاريخهم التي صنعت حضارة العرب بالأمس. وبرغم هذا الانقطاع فإن شيئا من ذلك التراث ظل نائما في نفوسنا إرثا

قديما عريقا ينام في خفايا وعينا الباطن دون أن نهتدي إلى أسلوب أو وسيلة لتفجيره والاستفادة منه واتخذ تعاملنا مع الوقت هذا الشكل التعويضي المرضي العبثي الذي يجعلنا نهتم بالشكل وننسى كل شيء عن الجوهر، نحتفل بالساعات ونعامل الوقت بازدراء واحتقار. وطالما ظلت هذه المعدلات المقلوبة هي التي تحكم سلوكنا وتصرفاتنا فسيظل الزمن العربي مقلوبا بالنسبة إلى أزمنة الآخرين. يمضى الناس إلى الأمام في حين نهرول نحن إلى الخلف.

- ٧٨ -

لا أدري كيف يمكن للواحد منا أن يواجه ما يمتلئ به الواقع العربي من إحباطات وما يحاصرنا به من مشاكل وهموم وما يمطرنا به الحاكمون من خطابات وحكم ووصايا وما تقدمه لنا الإذاعات من مساخر وفواجع لولا القليل من الدعابة.

ولا أتأسف لأحد قدر أسفي لمن يمضي في الحياة متجهم الوجه مقفل الملامح يأخذ كل شيء بجدية وصرامة ويأبى أن يتحلى بشيء من الدعابة فوق رأسه ويرتدى معطفاً بلون الكآبة والرماد يمشي فوق الأرض وكأنه يمشي فوق حبل مشدود في الهواء لا يضحك ولا يبتسم وكأنه إذا ارتاح قليلاً أو أبان عن أسنانه لحظة تقوض الكون وغمر الطوفان الدنيا.

وينسى هذا الرجل أن أخذ كل شيء بتجهم وصرامة وجدية لن يجعل عمله أكثر جدوى، ولن يجعل حياته أكثر فائدة أو منفعة، ولن يجعل أيامه أكثر سعادة أو متعة، وأن هذا الأسلوب لن يورثه إلا أمراض القلب، وأن مقداراً صغيراً من الدعابة يبقى شيئا ضروريا لتحقيق العافية النفسية والبدنية للعاملين . إنه مثل ملح الطعام الذي بدونه يفقد الأكل مهما كان دسما وغنيا مذاقه ونكهته ويفقد الغذاء

مقوما أساسيا من مقوماته. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن نتحول إلى هازلين ساخرين مشككين فيما نسمع أو نرى نكتفي بالجلوس على مقاعد الرصيف ونبقى مجرد متفرجين يضحكون من تمثيليات العبث العربية. إن الحياة في أساسها كدح وعمل ولكن هذا الكدح لا يعني أن تفقد الحياة جانبها المرح وأن نتحول إلى سحابة سوداء تغطي أرجاء الكون أو نتحول طوال ساعات الليل والنهار إلى أعصاب مشدودة لا تعرف الراحة أو الاسترخاء، بل يمكن القول إن أكثر الناس انهماكا في العمل هم أكثر الناس حاجة إلى هذا المقدار القليل من الدعابة يعينهم على تحمل ما يرزحون به من أعباء ومسئوليات.

إن روح الدعابة نقيض للكآبة والنظر إلى الدنيا من خلال منظار بالغ القتامة، إنها تعني فيما تعنيه سماحة الطبع وحب الناس والاعتراف بأوجه القصور الإنسانى وإتاحة المجال للتعامل مع هذا

الضعف دون عسف أو مكابرة فلا نأخذ كل خطأ على أنه جاء بدافع التآمر والتدبير المشبوه، وكل ضعف إنسانى على إنه إنذار بوقوع الكارثة، وألا نمنح ثقتنا كاملة لهذه النواميس التي تحكم المجتمعات، فهى أقل إحكاما مما نظن، كما أن الحياة أكثر اتساعاً ورحابة، والدنيا أكبر حجما من مجرد كرة يحملها الواحد منا فوق رأسه ويمشي.

إن القلوب إذا كلت عميت كما يقول الأثر الشريف، ونحن لن نستطيع أن نثري الحياة ونبني المجتمعات بقلوب عمياء.. فدعوا قلوبكم قادرة على الإبصار ولا تنسوا تكحيلها بين الحين والآخر بمسحوق الشفاء العجيب الذي نسميه روح الدعابة.